عنترة بن شدّاد

١٤



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

عنترة بن شداد

١٤

تأليف

حسن جوهر

محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١

بلغ عبد هياف أن عنترة سيلقاهم فى جيش قوى وهم فى سبيلهم إليه فقال : ومن هؤلاء الذين خرجوا إلى لقائى ؟ ! ! إنهم إلى فنائهم سائرون . وأمر عبد هياف صخرا المغربى أحد قواده الشجعان أن يقاتلهم هو وجنوده ليقف على مبلغ قوتهم وقال له : لاتخف مهما يكن شأنهم فإنى من ورائك .

التقى بنو عبس بصخر وجنوده ، فبرز الغضبان ينادى من يبارزه ، ولما قتل كثيراً ممن بارزوه انقض عليه بقية الجيش ، ولكن الغضبان جال فيهم جولات قاتلات أفزعتهم وأرغمتهم على الفرار إلى عبد هياف شاكين له ما لاقوه من بلاء وفناء وأسر ، فعجب هو وقومه أن يهزم فارس جيشاً وقال : صبراً صبراً ! ! فسأثأر لكم ، وأقطع دابر هؤلاء القوم الذين طغوا وبغوا ، ثم خاضوا معهم غمرات القتال وماجوا فى شدته وعنترة وبنوه يقودون أزمة الأعداء إلى الموت ، ويتخطفون أرواحهم ، ودامت الحال على ذلك أياماً ،

رأى عبد هياف من بنى عبس ما هدم آماله وآثار غضبه واستنكاره ، فأرسل الملك الأخضر فى ثلاثين ألفاً إلى ديار بنى عبس ، فأخذوا أموالهم ، وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم ، وعادوا إلى عبد هياف ظافرين ، وكان قد انسل

رجل من أسرى بنى عبس فانفلت بجواده إلى عنترة وقال له : هذه الغبرة التى تراها قادمة على مد البصر لجيش الملك الأخضر يسوقون الأموال ، ويقودون النساء والرجال ، وفيهم الربيع بن زياد وأخوه عمارة ، فغضب عنترة وغضب قومه وأنصاره وتعاهدوا على ألا يتركوا هؤلاء الأعداء .

انتعش عبد هياف بفوز الملك الأخضر فبرز بين الصفوف ونادى من يبارزه ، فخرج إليه ملاعب الأسنة فضربه عبد هياف ضربة أوقعته على الأرض مذهولا قال له : قم أيها الفارس وارجع إلى عشيرتك فما أنت ممن يبارزون عبد هياف ، ولا أنت ممن يحرص على قتلهم أو أسرهم ، فقال الغضبان لأبيه : دعه لى يا أبى ثم انظر ما أفعله ، فقال عنترة : يا بنى كم من فتى قوى صرعه ، وقد سمعت الآن أنه يمسك السباع فى الغابات بيده فجعل يتوسل إلى أبيه أن يأذن له فى مبارزته ولكن قطع هذا الحديث أن رأوا بسطاما حامية بنى شيبان قد برز إليه ، فوجده قد ثنى إحدى رجليه ووضعها على ظهر جواده ، وهو غير مكترث بمن أمامه من الأبطال ، على الرغم مما أذاقوا جيشه من ألم الخزى والهزيمة . وقال : ما لى فى قتلكم من غاية ولكنى سأريكم كيف تغلبون ، ثم أطبق عليه إطباقة فر منها إلى قومه ، فجاءه عامر بن الطفيل وقال : احترس فقد جاءك وحش الليل ، وجالب الويل ، فضربه عبد هياف ضربة أطار بها الرمح من يده ، ثم أمسك تلابيبه ورفعه إلى السماء بيده ، ووضعه تحت أحد فخذيه



عبد هياف يمسك عامر بن الطفيل ويضعه على ظهر جواده ويهم بالركوب عليه

فكان كقطعة من سرجه .

ووجد عنترة تسابق الفرسان إلى مبارزته على غير طائل فبدا يقاتل الجيش برمته فجعل يجزهم بسيفه جزاً ، ودفعته ثورته إلى اختراق صفوفهم والدخول فيهم وهم لا يستطيعون أن ينالوه بمكروه ، وانتبه من ثورته فوجد نفسه محاطاً بهم . وحاول أن يفلت من بينهم فلم يجد مخرجاً ، واستمر القتال وكثرت جروحه وخفى عن أعدائه فتاه عنهم وأدرك بنوه ما أحاط بأبيهم من بأساء فجعلوا يفسحون بسيوفهم السبيل للقائه والوصول إليه ، وقتلوا فى ذلك خلقاً كثيراً ، ولكنهم لم يعثروا على أبيهم ولم يقفوا له على خبر ، وعلم بذلك جيشه فرجع أكثره إلى ديارهم يأساً من النصر وحرصاً على النفس لأنهم افتقدوا عنترة الذى كان يحميهم ، وبقى بنوه وجماعة من بنى عبس يجاوزون الألف عداً ، وشاع فى جيش عبد هياف موت عنترة وانكسار جيشه وهربه ، فرحل طالباً كسرى أنو شروان ، ولكن الغضبان عز عليه أن يتركهم يرحلون دون أن يأخذ منهم بثأر أبيه ، فتتبعهم بفرسانه فى صبيحة رحيلهم ، وعلم عبد هياف أن الغضبان يتبعه فى ثلة من جنده ، فأمر جيشه بالوقوف ، وقال ليخرج منكم ألف فارس للقضاء عليهم ، فتلقاهم ميسرة وحده وانهالت عليهم ضرباته حتى فرقهم وارتدوا إلى مليكهم مذعورين ، تعلو وجوههم صفرة الخوف وقالوا له : لم يقابلنا إلا فارس واحد وكان فينا كأنه الموت أو أشد ، فلم نستطع ثباتاً

ونجونا بأنفسنا هاربين ، فقال : لعل الغضبان بن عنترة ، استصغر شأنكم ، وضن بجيشه أن يلقاكم فتولى هو نفسه قتالكم حتى خذلكم ، وأمر أن يمدوا بألف آخرين ، فلقيهم غصوب وميسرة ، وألقيا بقتالهما رعباً فى صدورهم فولوا هاربين ، وقالوا لمليكهم : لم يقاتلنا إلا فارسان كأنهما من مردة الجان . فاغتاظ عبد هياف وأمر جيشه أن يحارب لينتهى من أعدائه بسرعة حتى يستأنف رحيله ، وكانت كثرة جيشه سبباً فى انفضاض كثير من أعوان الغضبان وفرارهم فاستعصم بالهزيمة حتى يقوى شأنه ، وينال المراد من أعدائه ، ولكنه جعل يقتفى أثر الجيش الظافر ويتبعه ، ومعه ثلة قليلة من رفقته وأعوانه .

نزل عبد هياف بجنده على أبواب المدائن واستمروا محاصرين لها أشهراً عدة ، ولما لم يجد الغضبان ورفقته فرصة تمكنهم من الفتك بأعدائهم ، وطالت مدة الحصار عليهم انقلبوا راجعين ، وكان الغضبان يتميز غيظاً وحزناً على فقد أبيه عنترة ، فقال لغصوب أخيه : أترضى أن نسكت عن ثأر أبينا وننعم بحياة زائلة وإن طال أمدها ؟ فأجابه : لن نسكت عن ثأره حتى نموت دونه ، فقال : وماذا ترى ؟ فقال شيبوب : أرى يا أبنائى أن نذهب إلى دريد بن الصمة ، عسى أن يساعدنا وفاء لصديقه عنترة ، فقال الغضبان : اذهبوا أنتم ، ولكنى لن أبرح مكانى هذا ، وسألبث عاكفاً على اقتفاء آثارهم حتى يقيض لى ربى فرجاً من عنده أو تأتونى

بدريد وجيوشه ومن يناصركم من العرب . وأصر على رأيه هذا فتركوه دون مؤنس أو معين .

وجد أخوة الغضبان ومن معهم دريدا حزيناً على عنترة حزناً شديداً ، كما وجدوه جاداً فى تعبئة الجنود من القبائل للأخذ بثأره ، فقصوا عليه ما انتهى إليه أمرهم ، وذكروا له الغرض من مجيئهم إليه ، وأن عبد هياف محاصر كسرى فى مدائنه ، وأنهم إن زحفوا عليه من ورائه ، وزحف كسرى من أمامه اضطرب أمره وسقط فى يده ، ونزلت بجيشه ضائقة من القتال ، فباءوا بهزيمة لا تقوم لهم بعدها قائمة . فقال لهم : ما كنت لأسكت عن ثأر صديق عنترة ، وها أنتم أولاء وجدتمونى جاداً فى تعبئة جيوش لنقوم بواجب الوفاء لحاميتنا وصاحب الفضل علينا وعلى الناس ، فكم حارب البغى والعدوان فى الناس ، وكم دافع الأثرة والطغيان فى النفس ، فشكروا له صدق وفائه . كما سرهم تتابع الفرسان من القبائل رغباً لا رهباً حتى اجتمع لدى دريد ما يقرب من ثلاثين ألفاً يستعذبون الموت فى سبيل عنترة .

وبينما هم سائرون على مقربة من جيش عبد هياف رأوا على بعد جموعاً من الفرسان فبعثوا الجواسيس ليعرفوا من هم ؟ وإلى أى غرض يسيرون ؟ وكانت هذه الجموع للغضبان بن عنترة ، استطاع أن يجمعها من أسرى بنى عبس بعد إطلاقهم ومن القبائل بما عرف عنه من مروءة وكرم ومحبة للناس ، ففرح دريد ومن معه وأسرعوا إلى لقائه كما فرح الغضبان بهذا

المدد العظيم ، وشكر لدريد وصحبه هذه النخوة الكريمة وهذا الوفاء الجميل.

سمع عبد هياف أن العرب قدموا فى حشد من الفرسان يطلبون ثأر عنترة فلم يحفل بهم وقال : عجبت لقوم فروا من الموت ثم رجعوا إليه ، لقد زهدنا فى طلبهم لاستئصال شأفتهم حينما فروا من وجوهنا ، وعفونا عن بعض أسراهم رحمة منا ، ومهدنا السبيل لفرار الباقين ، فكيف يعودون لما كانوا فيه من أسر وهوان ؟ ! !

وطلع غصوب من بين الصفوف وبارز سبعين فارساً تباعاً فهزمهم جميعاً ، وغاظ الملك الأخضر ما حل بالفرسان فخرج إليه وضربه فى صدره بزجاج رمحه فألقاه عن ظهر جواده فأسرع أخوه ميسرة وحمل على الملك الأخضر وأشار إلى فرسانه أن يسرعوا إلى غصوب ويحملوه إليهم ، فهبوا سراعاً إليه وحملوه إلى خيمته بينهم وانتهى النهار وميسرة يبارز الملك الأخضر ولم يبن لهما ولا للناس أى الخصمين أقدر على أن يغلب الآخر .

وكان عبد هياف قد أرسل إلى الملك الأخضر يحذره من المبارزة لئلا يظهر العرب عليه ويغلبوه ، فلما جاء الصباح حمل عليهم بعسكره ، وقابلوه بحملة أعنف من حملته ، فأطبق عليهم ظلام الغبار ، وسالت الأودية دماء ، وكان يوماً عسيراً على عبد هياف وجنوده ، وأظهر فيه أبناء عنترة من ضروب القتال والبطولة ما كان مثار الإعجاب والثناء فى نفوس قومهم ومبعث الرعب والدهشة فى نفوس أعدائهم .

وما كاد الغضبان يهب من نومه حتى صفت صفوف جيشه وانبروا للقتال ، ثم برز منادياً من يبارزه من أبطال الهند والسند ، فبرز إليه فارس وقال : احذر الملتقى ، فما أنت أشد من أبيك وأقوى ، فوثب عليه الغضبان وطعنه برمحه فى قلبه فوقع صريعاً ، ثم جال جولات مرعبة ونادى بها من يبارزه فما جاءه أحد ، ولكن الجيوش هجمت عليه فقابلتها جيوشه بهجوم مثله واستمر القتال بقية اليوم وجيوش الأعداء لا تلقى إلا ضيقاً وعسراً ، ولا يجد العرب إلا نصراً مبيناً ، فضاق صدر عبد هياف وعزم أن يشرف على القتال بنفسه .

وفى الصباح خرج الملك الأخضر إلى الميدان وما لبث أن برز إليه الغضبان ، فجالا وصالا ، وأمعنا فى الكر والفر إلى أن غابا عن الأبصار ، والخذروف من ورائهما كأنه فى ظلهما ، وبينما هما فى شدة العراك وحدة الكفاح — إذ طلع عليهما فارس على جواد أدهم ، أحكم لثامه فلم يبن من وجهه إلا بريق عينيه ، فضرب الملك الأخضر بأسفل رمحه فسقط عن جواده ، فأسرع الخذروف واعتقله وربط فى القيود يديه ورجليه ، ثم قال هذا الفارس الملثم : ما رأيتك أيها الغضبان إلا أمة من الفرسان ، فرن الصوت فى سمعه رنين صوت أبيه ، فقال فى لهفة : قل لى بربك من أنت أيها الفارس ؟ ! فقال : عابر سبيل . فزاد الرنين الشهى فى سمعه وضوحاً وقال : عجبت لصوتك ، إذ يبعث فى صدرى اللذة والألم ! فمن تكون أيها العابر الكريم ؟ فقال : عابر فقده

قومه ، وإنهم لفى يأس من وجوده ، فمن يكون ؟ ! فقال الغضبان فى دهشة : صوت أبى ! وفصاحة أبى ! فهل أصدق سمعى وإحساس قلبى ؟ ! ! فقال : ولمَ لا ؟ أتظنه محالا ؟ أو نسيت أباك عنترة ؟ ثم كشف اللثام عن وجهه ، فرمى بنفسه على أبيه يقبله وقال : أنا فى يقظة أم فى منام ؟ ! وانفلت الخذروف إلى بنى عبس وأخبرهم ليطمئنهم أن القادم عنترة فارسهم ، وكان لقاء بعث الحياة فى نفوسهم وأرجع الثبات إلى صدورهم ، وأذهب عنهم كل حزن ، وباتوا فرحين يتساءلون فى غبطة كيف سلم عنترة ؟

* * *

شق عنترة سبيله بسيفه بين صفوف أعدائه وجعل يعرج يميناً وشمالا مندفعاً إلى الأمام حتى كان فى وسطهم ولم يكن من ورائه أحد من قومه يحمى ظهره ، فأطبقوا عليه وأصابه أحدهم بطعنة عقدته بالأرض بين كثرة من قتلاه لا يبرح ولا يتحرك ، فظنوه قد مات وانصرفوا عنه إلى قتال قومه وأبنائه ، فلما انفرج عنه الأعداء وارتحلوا انتبه وقعد فوجد جسمه قد مزقته جروح كثيرة ، فمشى متحاملا على قوته ، فرأى مضرباً فقصده ، فوجد عجوزاً على وجهها ملامح الطيبة والغربة ، فأسرعت إلى لقائه وفى نفسها من العطف عليه ما بدا فى بريق عينيها وقالت : ما بك أيها المسكين ؟ فقال : ما لا يخفى عليك فدخلت به الخباء ، وأطعمته لحماً ولبناً ، وضمدت

جروحه ، وقامت بخدمته وإطعامه وتطبيبه حتى شفى واسترد قوته ثم سألها :
من أنت يا أماه ؟ وما سبب اعتزالكم فى الفلاة وهجركم العمران ؟ فقالت :
إنى أم أولاد ثلاثة ، ونحن من عرب حصن خيبر ولكننا لسنا من اليهود ،
أتاهم منذ زمن عنترة بن شداد ، فحرق الحصن ومزق الأهل ، فهربنا منه
إلى هذا المكان ، فابتسم عنترة قائلا : سبحان مقلب الأحوال ، ثم أقبل
أولادها بعد حين ومعهم مغانم من نوق وجمال ، فلما رأوا عنترة عرفوه ،
فأقبلوا إليه فسلموا عليه ، وقبلوا يديه وقالوا : مرحباً بأبى الفوارس ، أهلا وسهلا
فقال : طاب حالكم ، ورغد عيشكم ؛ وسألهم عن عبد هياف وجيشه فقالوا :
إنهم يحاصرون الآن كسرى ، أما أبناؤك فإنهم ذهبوا إلى دريد بن الصمة
فجمع لهم فرسان القبائل ، إلا ابنك الغضبان فإنه أصر ألا يغادر مكانه
من خلف جيش الأعداء حتى يعودوا إليه وقد أدركوه بجيش يبلغ المائة
ألف ، وهو الآن يبارز الملك الأخضر فى معزل بالفلاة ، فتحرق فؤاده
على ابنه وركب جواداً من جيادهم ، وكان معه سلاحه ، وانفلت به فى
الصحراء ، فعثر فى طريقه بخمسمائة فارس ومعهم جواده الأبجر ولكنه
شمس عليهم واستعصى ، فناداه عنترة ، فعرف الجواد صوته وجرى إليه ،
فامتطاه وهم أن يطير به فقالوا له : ما بالك أيها الفارس تأخذ صيدنا دون
إذن منا ؟ ! فقال : ما أخذت إلا ما أملكه ، فهو الأبجر وأنا صاحبه
عنترة ، فظنوا أنه عفريت من عفاريت الصحراء لأن عنترة فيما يعلمون قد

مات وطواه الفناء ، وخافوا أن يمسهم منه البلاء ، ولاذوا بالفرار فى جنبات
الصحراء ، ورجع هو إلى العجوز وأبنائها ، فأعطاهم جوادهم ووصاهم أن
يأتوه فى دياره إذا سمعوا نصره وعودته إليها ليكرمهم فيها جزاء معروفهم ،
وعزم أبناء العجوز أن يصحبوه ليساعدوه فأبى عليهم ذلك ، وبينما هم فى
حديثهم إذ بانت لهم غبرة قادمة ، فارتقبوها حتى انكشفت لهم عن فارسين
كأنهما من قوم عاد طولا وقوة. ومعهم عبيد وخيل ونوق كثيرة ، فسألوهما ،
من أنتما ؟ وما شأنكما ؟ فقالا : نحن من فرسان الحجاز ، خرجنا للكسب
وهذه أموالنا التى كسبناها ، ونحن فى حاجة إلى طعام وشراب فقالوا :
على الرحب والسعة . وأحس عنترة من نفسه محبة وعطفاً لهذين الفارسين ،
وسألوهما عن اسميهما : فقال أكبرهما : أنا جار العلم وهذا زيدان أخى ،
وأبونا عنترة بن شداد العبسى ، وأمنا ابنة زيد المكدم ، وأخت ربيعة ،
وما رأينا أبانا عنترة حتى هذه الساعة ، ونود أن نراه ونعيش فى كنفه ولكنه
لا يفتأ يقاتل مغترباً ، وعسى أن يكون حيًّا فنرجو لقاءه ، ولو عرفنا أين
هو الآن لقطعنا إليه الصعاب وفتحنا إليه كل باب . فقالوا : وكيف
تكونان ابنيه ثم لا تريانه ؟ فقالا : كان أبونا عنترة مع خالى ربيعة فى
دياره فزوجه من أخته ثم غادرها إلى جهاده وكفاحه ، وكان أن
قتل نبيشة بن حبيب خالى ربيعة ، فلما ولدتنى أمى أسلمتنى إلى جدتى
أمها ورحلت إلى ديار بنى عبس لتستنجد بزوجها عنترة وتطلب إليه أن

يثأر لأخيها ربيعة وأقامت عنده حتى ولدت أخى زيدان فى أثناء مقامها ، ثم رجعت إلى قومها ، أما أبى عنترة فإنه ثأر لخالى ربيعة ولم تقعد به الحروب فى دياره فقالوا : وماذا تصنعان بمن يدلكما على أبيكما ويجمعكما به ؟ فقالوا : له علينا كل فضل ومعروف ، وما ملكت أيدينا من مال وقوة ، فقالوا : إن القدر جمعكم به وأنتم الآن بين يديه ، وها هو ذا أبوكم عنترة ، فقاما إليه وقبلا يديه وضمهما إلى صدره ، وحمدوا الله الذى جمع شملهم بعد فرقة ، ثم قص عليهما ما هو فيه الآن من محنة ، فقالوا قم يا أبى لندرك أخانا الغضبان وننزل بأعدائه الردى والخسران ، فقال : دعونى أهب لهؤلاء الأبناء وأمهم ما معكم من الأموال جزاء ما قدموه لأبيكم من معروف ومعونة وكريم عشرة ، فقالوا : الولد وما ملكت يمينه لأبيه ، وهذه أموالك فهبها لمن تشاء ، فالتفت إلى العجوز وأبنائها وقال : هذه الأموال لكم ، وإن قدر لى النصر فأتونى فى ديارى لأوفيكم أجر ما صنعتم من معروف ، ثم ودعهم وسار ثلاثتهم إلى حيث أخوهم الغضبان يبارز الملك الأخضر وكان ما قصصناه من قبل .

* * *

قال عنترة لأخيه شيبوب وابنه الخذروف : أريد كما أن تأتيا لى بأخبار عبد هياف وجنده ، وحذار أن يعرفوكما أو يجدوا فرصة لإيذائكما ، فانطلقا كل فى سبيله ، وهو معتمد على نفسه فى تدبير أمره ؛ أما الخذروف فإنه

تزيا بزى شاعر عربى فلبس ثوباً طويل الأكمام وعمامة ذات عذبتين ، فلما كان بين جند عبد هياف سألوه عن حاله فقال : شاعر يذهب إلى الملوك يمدحهم وينال عطاءهم ، أتيت قاصداً ملككم لما سمعت عنه من كرم وجود فذهبوا به إلى مليكهم ومدحه بقصيدة عصماء نالت إعجابه فسأله : من أى العرب أنت ؟ فقال : شاعر من بنى هوازن جاء بى إليك حاجتى ، فأغدق عليه فضله وجعل له مضرباً يقيم فيه . فجعل فى أثناء إقامته ينتقل هنا وهناك باحثاً عن مكان الأسرى من بنى عبس حتى عرفه .

وأما شيبوب فإنه لبس ثياباً مهلهلة ، وقلنسوة ممزقة ، وذهب إليهم فى زى فقير بائس ، وجعل يطوف بأبواب الخيام طالباً زاداً يطعمه واستدر عطفهم بقوله : أضعفنى الكبر ، وأضنانى الحزن على أولادى الذين قتلهم الغضبان بن عنترة ، وحرمنى معونتهم وبرّهم ، وأسلمنى إلى الزمن ونوائبه ، وليس لى إلا إحسان المحسنين وعون الراحمين ، فرحموا ضعفه ، ورثوا لحاله ، وكان لا يسأل أحداً طعاماً إلا أعطاه وأكرمه ، واستغل طوافه لجمع الصدقات فى البحث عن أسرى بنى عبس .

التقى شيبوب بابنه الخذروف عند الأسرى ليلا وكان من بينهم غشم ابن مالك وهانئ بن مسعود وذو الخمار وعروة بن الورد ، فعرفهم بنفسه وابنه ، وبشرهم بقدوم عنترة إلى قومه ، وأنه ظهر له ولدان آخران لا يقلان شأناً عن أبنائه الثلاثة ، كما بشرهم بأسر الغضبان للملك الأخضر ، وأنه

قدم هو وابنه الخذروف متنكرين لخلاصهم والوقوف على أخبار أعدائهم . فاستبشروا بالخلاص وفرحوا بعودة عنترة ولقائه بعد الإياس ، وتعاون شيبوب وابنه فى حل قيودهم ، ففكوا القيود جميعها ما عدا ذا الخمار فلم يستطيعوا فك قيوده فتركوه قبل أن ينكشف أمرهم ، وركبوا جياداً وذهبوا بها هاربين بعد أن قتلوا بعضاً من عبيدهم الذين وكل إليهم أمر حراستهم وهم نائمون ، ليعرف المليك أنهم خرجوا بتدبيرهم رغم أنف حراسهم .

* * *

علم عبد هياف أن الذى أسر الملك الأخضر هو عنترة ، فدهش وتحير وقال : لا بد من قتل كل أسير من بنى عبس حتى نأمن شره ونستريح من وجوده وطلب الأسرى ليقتلهم فلم يجد منهم أحداً إلا ذا الخمار فإنه قص على الملك قصة هربهم ، وبين له أن شيبوباً وابنه حضرا إليهم متنكرين ، وقتلا أكثر الحراس وأطلقا الأسرى من قيودهم ، فأحضر بقية الحراس وقتلهم متأثراً بغيظه وخيبته ، وخرج فى الحال ليدركهم ، ولكن شيبوبا ومن معه ظنوا بالأعداء أنهم لا يقعدون عن طلبهم فأرخوا أعنة جيادهم وركبوا متن الريح هرباً .

يئس الملك من إدراكهم فدعا بفارس يسمى كنانة بن الأشمط ، ويلقب بمرارة الموت ، وقال له : تعقب الأسرى والشيطانين : شيبوباً وابنه الخذروف لعلك تدركهما قبل أن يصلوا إلى جيشهم فإذا أدركتهم فأحضرهم

معك حتى أقتل شيبوباً وابنه وأصلبهما ، وأذهب غيظ قلبى بسحق عظمهما ، ولما يئس هو أيضاً من إدراكهم نكص على عقبه راجعاً ، وقال : لم أجد لهم أثراً ولا ظلا .

والتقى الفريقان واستعرت فيهما نار القتال حامية ، فشوت من جيش عبد هياف الوجوه والأبدان ، وأزهقت الأرواح ، وأبدى عنترة ما حير الألباب فى الكفاح ، وجعل عبد هياف يركب جواده ويلقى بنفسه فى المعمعة يبغى قتل عنترة ومن يماثله فى القوة من فرسانه ، واستطاع عبد هياف أن يخترق صفوفهم حتى وصل إلى الملك الأخضر فى معتقله فاختطفه من بينهم وعاد به فى سرعة البرق إلى جيشه ، ثم تصدى لمبارزة الفرسان من جيش أعدائه والنصر لا يزال حليفه فقتل من قتل ، وأسر من أسر ، وجعل يجول ويصول منادياً من يبارزه من القوم ، فبرز إليه فارس يتقد جرأة وقوة ، فقال له الملك : من أنت حتى استعذبت الموت وطلبته ؟ فقال : أنا من يستعذب الموت فى سبيل المجد والكرامة ، أنا جار العلم بن عنترة ، فقال : أنت الذى قدمت مع أخيك زيدان وفرحتما بلقاء أبيكما ؟ فقال : فرحنا بلقائه ونموت فى الذود عنه وعن قومه ، ثم حاول الملك أن يقهره فتأبى عليه واستعصى وكان الليل قد أقبل فتهادنا إلى غدهما ، وفى الصباح برز جار العلم ونادى قرنه ومبارزه بالأمس ، فبرز إليه همدان بن عسقلان ، فلم يلبث أن جعله قسمين ، وتوالى بعده فرسان أيقنوا

أنهم مهلكوه ولكنه أرداهم جميعهم ، فبرز إليه الملك الأخضر ، ولما أوشك أن يقع فى يده أدركه عبد هياف وصاح فى جار العلم صيحة منكرة ، فأسرع أخوه زيدان وصاح فى عبد هياف صيحة مرجفة رادعة ، وأذن لأخيه أن يذهب إلى القوم ليستريح كما أذن عبد هياف للملك الأخضر أن يذهب إلى جيشه ليستريح وانفرد الميدان بهما ، وعرف الملك منه أنه زيدان أخو جار العلم وابن عنترة وكان كل منهما قد عزم على أن يجهز على صاحبه ولكن قدوم الليل أرجأ تنفيذ ما عزما عليه إلى ضوء الصباح .

وفى الصباح رأى بنو عبس غبرة لجماعة قادمين ، فلبثوا قليلا ينتظرون ، فإذا بهم بنو كنانة ينشدون ابنى عنترة جار العلم وزيدان ، فقالوا : غزانا غياث بن صائل فى خمس قبائل فنهبوا الأموال وشتتوا الرجال. فقال عنترة : سترد إليكم أموالكم وأمثالها معها وسيعود إليكم اطمئنانكم ومهابة القبائل لكم ، وأمر ابنيه جار العلم وزيدان أن يذهبا معهم ويلبثا هناك فى عشيرتهم ، وأمدهم بالأموال ، وارتحلوا جميعاً إلى ديار بنى كنانة تنفيذاً لأمر عنترة .

أما جيش عنترة وجيش عبد هياف فقد كان القتال بينهما مبارزة بين الفرسان ، وأظهر الغضبان من البطش والقوة ما قتل به كثيراً من فرسان الأعداء، وأراد عنترة أن يبعده عن لقاء عبد هياف خوفاً عليه فأمره أن

يصحب بعض الفرسان ويذهب إلى كسرى ليفك الحصار الذى من حوله والذى أقامه عبد هياف بجزء من جيشه ، وأمر شيبوبا أن يصاحبه ، فلما كان على مقربة من الجيش المحاصر قال لعمه : ألك رأى فى كيفية الهجوم ؟ فقال : أرى أن تقف بجيشك هنا بعيداً حتى أتنكر ونعرف أخباره والثغرات التى تصلح للهجوم عليه منها ، وربما عثرت بالحارث بن زهير وأسرى بنى عبس فاحتلت لإطلاقهم ، فقال الغضبان: أرجو لك ياعمى التوفيق ونحن فى انتظارك ، فخبأ خنجره تحت إبطه ، ولبس ثياباً ممزقة ، وصبغ جسمه ، وغير من صوته ، واقتحم صفوف الجيش بخطا ضيقة وسيقان مرتعشة تنبئ عن كبر السن وضعف القوة ، واعتمد على السؤال فى طعامه وشرابه ، فلم يكن موضع اهتمام القوم إلا من حيث إطعامه ، وجعل يطوف بين المضارب فيجلس حيناً ، ويمشى أحياناً ، وهو يتجسس ، ويتحسس ، حتى سمع فى ظلام الليل صوت الحارث يندب زمانه وتحكم الناس فيه ، فقلع وتد الخيمة ودخل عليه من ظهرها ، فاستعاذ الحارث من هذا الذى لم يأت البيت من بابه ، فهدأه وقال له : لا بأس عليك ، أنا شيبوب جئت متنكراً لخلاصك وخلاص الأسرى ، وعلى مقربة منا الآن ابن أخى الغضبان فى آلاف من الفرسان ، أرسلنا عنترة لنفك الحصار عن كسرى ، فساوره الشك وقال : وأين عنترة ؟ ! لقد صار الآن تراباً ! فقال : وأبشرك بقدومه إلينا سالماً ومعه ابنان فارسان هما

جار العلم وزيدان ، وهو الآن فى حرب مع عبد هياف ، فقال : ومن غير لونك يا شيبوب ؟ فقال : صبغت جسمى لأخفى عن القوم ، وليس فى الوقت متسع للحديث ، ثم حل قيوده وانسل به خفية فى ستر من الظلام حتى وصل به إلى الغضبان ، وباتوا مسرورين بخلاصه حتى مطلع النهار .

وفى مشرق الصبح ركب الغضبان جواده ونادى فى قومه : أريدها منكم حملة قوية حاسمة حتى نتخلص من هزيمة الأعداء فى سرعة عاجلة ، لنعود إلى أبى ونكون ردءاً له فى قتاله عبد هياف ، وإياكم أن تحذروا الموت فمن حرص عليه وهبت له الحياة ، فقالوا : هيا بنا فقد بعنا نفوسنا ، وسيكون النصر بعون الله لنا ، ثم ساروا إلى جيش الأعداء وأوقدوها حرباً مدمرة ، فقتل قائد الجيش وتهاوى كثير من فرسانه ، وأذن فيهم مؤذن الدمار والويل ، فركنوا إلى الفرار وكان ذلك على مرأى وعلم من كسرى ، وعجب فرحاً لهؤلاء القوم الذين ساقهم القدر إليه من حيث لا يحتسب ، فطردوا أعداءه وفكوا الحصار عن مدائنه ، فى يوم إلا أقله ، وأرسل جماعة من فرسانه إلى الغضبان ورجاله أن يحضروا إليه مكرمين مشكورين ، وبعث معهم كثيراً من الهدايا لتكون مظهراً كريماً لسروره وآية بينة لشكره ، وقال له قومه : إنه الغضبان بن عنترة الذى نهب الجزية التى كانت قادمة إليك من قيصر ، فقال : ولكنه الآن أحسن إلينا غاية

الإحسان ، وفعل ما لم تستطعه الشجعان ، وإن الحسنات يذهبن السيئات ، ولقد أسفت على موت أبيه عنترة ظلماً وعدواناً ، فقالوا : إن أباه عنترة لم يمت ، فقد رجع إليهم سالماً ، وهو الآن فى حرب مع عبد هياف ، وبينما هم فى الحديث إذ سمع جلبة أمام الإيوان فسأل عنها فقيل له إن الحرس طلبوا من الغضبان أن يترك عدة حربه قبل أن يدخل إلى مجلسك ولكنه أصر أن يدخل وهو فى عدة قتاله وقال : لست فى حاجة إلى طعامكم وشرابكم ولا إلى الحضور إلى مليككم ، ولن يفارقنى سيفى وعدة قتالى ، وإن تكلمتم جعلت رءوسكم موطئاً للأقدام . فقال : دعوه يدخل كما يشاء وله منى السلامة والأمان فهو صبى تربى فى البادية فخلوه على حاله ، فقد نفس عنا كربتنا وشتت شمل أعدائنا ، وهو غير أبيه الذى عرف بالعقل وصواب الرأى وحسن المجاملة ، فقالوا له : لا تزعل منا ، فتلك عادة الملوك عندنا فلا يدخل عليهم أحد ومعه سيفه أو عدة قتاله ، ولكنك أيها الفارس محل ثقة المليك ومحبته ، ولهذا فقد أمر أن تدخل عليه كما تشاء ، فتفضل ولك منا الحمد والثناء فقد أقلت عثرتنا ، وكشفت عنا غمتنا ، فلما دخل عليهم وقفوا له إجلالا ، وسار حتى جلس بجانب كسرى ، دون أن يتكلم أو يسلم ، فنظر بعضهم إلى بعض نظرة عجب وكأن نظراتهم تتساءل : ما هذا الأدب ؟ ! أليس قادماً على أناس جالسين ؟ ! فأجابهم كسرى بلغته ، لا تعجبوا ولا تلوموا ، فلا يزال فى

مقتبل عمره ، وهو غاضب وفى أعماله غلظة ، ولا يعالج الأمور إلا بسيفه فسكتوا على مضض ، وجعلوا ينظرون إليه وهو جالس ، وعلى ركبتيه سيفه ونصفه فى غمده ، فقال كسرى له : ما قولك أيها الغضبان إذا قاسمتك نعمتى وجعلتك أول المقربين إلى مجلسى ؛ ومن أعول عليهم فى شئونى وأمور دولتى ؟ فقال : لست فى حاجة إلى نعمة أحد ، ولا أن أعيش فى كنف أحد ، فأموال العرب كلها فى متناول يدى ، آخذ منها ما أشاء ، وأترك ما أشاء ، ولا أشعر إلا أننى سيد مطاع ، وأنت وما تملك فى حماية سيفى ما حييت ، ولن يجد المعتدى عليك منى إلا نكالا ، فقال كسرى : نشكر لك هذه المنة ، ولا غرو فأنت ابن عنترة ذى الفضل والهمة ، وأين تركت أباك عنترة ؟ فقال : تركته فى حرب مع عبد هياف ، فقال : وكيف حال هذا الملك ؟ فقال : فارس جبار ، وبطل مغوار ، وشجاع لا يدرك له قرار ، وتحت يده من الفرسان ألوف مؤلفة ، وسيلقاه أبى ليرى العرب أيهما أشد وأبقى ، ثم وضعت المائدة حافلة بصنوف الأطعمة ، فجعل يأكل حتى شبع الحاضرون وغسلوا أيديهم ، وهو لا يزال يأكل ويأكل ، وهم فى عجب ودهشة من كثرة ما أكل ، وكلما نفد الطعام أحضروا له طعاماً حتى أكل مقدار ما يأكل سبعة رجال ، ثم مسح يده بالأخرى وجلس يشرب معهم ، فقال كسرى فى نفسه : إن عاش هذا فسيفوق والده ، ولن يجود الزمان بمثله ، ثم قال له : ألك أمنية ترجوها ؟

فقال : أمنيتى فى سيفى ، وليس لى أمنية عند أحد ، وبات عند كسرى ليلته ، ثم أمر جنده بالرحيل فى صبيحة يومه ، فودعه كسرى أكرم وداع ومنحه ألوفاً من الدنانير وكثيراً من النعم والدواب والثياب والسيوف والرماح وحمله السلام إلى أبيه وقال : إنى تحت أمره فيما يحتاج إليه من مال وسلاح يستعين به على قتال عبد هياف وقهره ، فشكره وانصرف .

فلما وصل إلى عسكر أبيه وجده يجول فى الميدان بعد أن قتل كثيراً من الفرسان وهو ينشد مبارزة الأبطال ، ولا يجسر أحد أن يتقدم إليه ، وكان عبد هياف حينئذ مشغولا بجنده الذين هزمهم الغضبان وطردهم عن كسرى مدحورين ، فأسرع الغضبان إلى أبيه وحدثه بما فعله وما لقيه ، واستأذنه أن يوزع الأموال التى معه على الفرسان والجنود فأذن له أن يفعل بالأموال ما يشاء ، فما خلق الكريم إلا للبذل والعطاء ، وما خلق البخيل إلا للحرمان والحرص والفناء .

وفى الصباح التقى عنترة وعبد هياف فى ميدان المبارزة ، فجد بينهما الجد وعظم الكفاح والكد ، وطال على الجوادين الأمد ، فقال عبد هياف : لقد أنزلنا بالجوادين كل نصب وتعب وأرى أن الأرض أثبت لنا من ظهريهما ، فقال عنترة : دونك وما تريد ، فلن ترانى إلا منصفاً لك فى كل ما ترى ، وقامت معركة لقى كل منهما من صاحبه ما لم يخطر على باله ورمى عنترة صاحبه بضربة أسكتت حركته برهة تمكن منه فيها ولكنه أبى

أن يجهز عليه ، فكان لهذا أثره الجميل فى نفس عبد هياف ، وآمن بشجاعة عنترة ، وسمو نفسه ، ولما جاء الليل أوى كل منهما إلى مضربه ومبيته ، وهنأ الملك الأخضر عبد هياف بسلامته ، وسأله عن عنترة : وكيف وجده ؟ فقال : فارس جمع إلى البطولة الرجولة والمروءة والثقة بالنفس ، فقال الملك الأخضر : وما دام عنترة كما وصفت فإنى أرى أن تطلب منه دية أخيك وتصالحه ، فقال : وكيف يجوز فى رأيك لمثلى أن يطلب لأخيه دية وقد خرجت من أجله فى ألوف مؤلفة من الفرسان ؟ ! ذلك ما لا يكون ، وسأظل أقاتلهم حتى أنتصر عليهم أو ينتصروا .

ومن غريب ما روى أن عبدهياف خرج هذه الليلة وحده كعادته ، ليصيد شيئاً من الوحوش يأكله ، وكان راجلا ومعه سيفه وترسه فدخل غابة فيها كثير من الوحوش والأسود ، فلقيه رجل خارج من هذه الغابة ، بيده اليمنى أسد ، وبيده اليسرى لبؤة ، فخاف ألا يكون هذا الرجل إنساناً ، وظن أنه من مردة الجن ثم استجمع جرأته وثباته وسأله : من أين أمسكت هذه السباع ؟ فقال : هذه الغابة ملأى بالسباع والوحوش ، وهى تكفى عساكر عبدهياف ، وما حاجتك من سؤالك ؟ فقال : أبغى أن أصيد شيئاً منها فقال : إن كنت فارساً جريئاً فادخل ولا تخف فإنك واجد فيها مأربك ، وإن أردت ألا تتعب نفسك فخذ هذين الأسدين وارجع بهما من حيث جئت ، فمن اليسير على أن أمسك غيرهما ، فقال : إن أردت

أن آخذهما معا فلا مانع لدى ، فقال : أضرم النار حتى أسلخهما وأشويهما . فلما نضجت لحومهما أكلا حتى شبعا . وبينما هما جالسان إذ رأيا ثعباناً يدب على الأرض دبيبا ، طوله عشرون ذراعاً ، كأنه نخلة ممدودة ، يتطاير الشرر من عينيه ، وله لسانان يتحركان بين شدقيه ، فقال عبدهياف : ما أعظم هذا الثعبان ! وما أشد خطره ! فقال هذا الرجل : أنا أكفيك شره ، وقام إليه وضربه بسيفه ضربة قطعت رأسه ، فعظمت مخافة عبدهياف من هذا الرجل وقوى فى نفسه الظن أنه من مردة الجن وقال : قرب افتراقنا ، ولا ينبغى أن تجمعنا مائدة ثم نفترق ولا يعرف بعضنا بعضاً ، من أنت ؟ فقال الرجل : ولمَ لم تبدأ أنت بتعريفى بنفسك ؟ فقال : أنا عبدهياف ، فقال الرجل : ما أنت إلا سيد كريم وملك عظيم ، أما أنا فخصيمك بالأمس ومبارزك ، عنترة بن شداد ، فقال : ما حسبتك إلا من مردة الجان ، وقال عنترة : وما كنت عندى إلا عبدهياف ، ولكنى أخفيت نفسى لتأخذ راحتك فنحن فى هدنة لها حرمتها ، ولا ينبغى أن تجد منى لك فيها إلا كل تقدير واحترام ، ثم افترقا على أن يتبارزا فى صبيحة الغد .

وجاءت الغداة ورأى عبدهياف ألا طاقة له بعنترة فقال له : لقد لقينا من أمرنا هذا نصباً ، وقد وجدت فيك من البطولة والمروءة ما رغبنى فى مصادقتك ، والإغضاء عما فرط من قومى وقومك ، فماذا ترى ؟ فقال عنترة

إن كنت صادقاً فى طلب الإقالة فإن الله قد أقالك ، فترك عبد هياف جواده ومشى إليه ومد يده مصافحاً ، ونزل عنترة تاركاً جواده وصافحه وتعانقا ، وقبل كل منهما صاحبه فى رأسه ، وكان ذلك رباط الصداقة والإخاء ، ثم ركب كل منهما جواده وعاد إلى قومه ، وأعلن فيهم هذا الصلح والوئام ففرحوا واطمأنوا . وأرسل إليه عبدهياف أموالا وهدايا ، ثم جمع عبدهياف وعنترة وكبار قومهما مجلس صفاء وودة فأكلوا وشربوا وسأل دريد عبدهياف أن يطلق سراح ذى الخمار فأمر بإطلاقه ، ثم ارتحلوا ورجعوا إلى ديارهم .

ولما انطلق ذو الخمار أبى أن يأتى بنى عبس شاكراً أو مسلماً أو تائباً ، وسلك سبيله فى القفار وجعل عنترة يقسم الأموال والهدايا إلى دريد بن الصمة وهانئ بن مسعود وقال للملك قيس : ارجع أنت مع الجيش والنساء والعبيد إلى الديار ، وسأتخلف فى مائة فارس ومعى أبنائى وعروة ومازن للسير فى البرارى لعلنا نصيب مغنما نحمله إلى ديارنا .

٢

وسار عنترة ومن معه حتى كانوا بمرج كثير الأشجار والأزهار فحطوا فيه رحالهم ليستجموا وما لبثوا أن رأوا جيشاً قادماً ، فأسرع الغضبان إليه ليتعرفه ، فما كادوا يعرفون الغضبان حتى أقبلوا عليه فرحين ، وأغدقوا عليه

كرمهم ، وكان هذا الجيش لكسرى ، أرسله فى طلب عنترة وابنه الغضبان ليجزيهم أحسن ما فعلوا بهم ، ولما التقوا بعنترة ومن معه حيوهم أكرم تحية ، ثم قالوا لعنترة : أرسلنا كسرى لندعوك إليه ، وتقيم عنده مدة فى ضيافته يؤدى لكم فيها بعض ما قدمتموه له من المعروف والإحسان فاستجاب لهذه الدعوة وصاروا جميعاً إلى المدائن ، وكان كسرى قد أعد لهم جماعة خارجها ومعهم حمام الزاجل ، وأمرهم أن يطلقوه عند حضورهم ليخرج فى كبار قومه للقائهم .

واستقبلهم كسرى وكبراء قومه استقبال شعب وفى لقائد مخلص أمين عاد ظافراً غانماً ، بعد أن سحق الأعداء ، ومكن فى الأرض لشعبه ، وأنزلهم منزلا مباركاً هنيئاً ، وأجرى عليهم من الكرم والحفاوة ما كان قرة الأعين ، وفى مجلس من المجالس التى جمعتهم للحديث والسمر قال كسرى للغضبان : أحب أن تطلب منى شيئاً تحبه وتتمناه فقال : أريد عموداً ورمحاً وترساً مثل اللائى لعبدهياف ؟ فأمر الصناع أن يصنعوها وأحضروها إليه ، فكان سروره بها عظيما ، وعجب كسرى أنه لم يطلب إلا ما يحتاج إليه فى القتال ومواطن البطولة والنزال ، زاهداً فى متاع الدنيا ونعمتها التى لا يخلد إليها إلا كل ضعيف ، ثم طلبوا العودة إلى الديار فودعهم كسرى أعظم وداع وأحفله ، ومنحهم أموالا ونوقاً وجمالا وخيلا وسيوفاً يقصر اللسان عن وصف كثرتها فقبلوها شاكرين ، ورجعوا بها فرحين .

وأراد عنترة أن يعرج على العجوز التى داوته وأكرمته فى محنته ليجزيها وأولادها خيراً بما فعلت ، فذهبوا إليها وفرحت هى وأبناؤها بقدومهم ، وأسبغ عليهم عنترة من النعمة والمال ما قرت به عيونهم ، وطلب إليهم أن يعيشوا معه فى دياره ، فقالت العجوز : نحن فى ظلال نعمتك وحمايتك أينما كنا ، فقال : ما دمت ترغبين المقام فى مكانك هذا فإنى طوع أمرك فى كل لحظة ، وأنت فى حمايتى ما دمت حياً ؛ ثم ودعهم ورجعوا إلى ديارهم بعد أن تركوهم أغنياء بما وهبوا لهم من الأموال ، فأقامت الأحياء الأفراح والليالى الملاح بعودتهم ، وعاشوا فى هناءه ومسرة مدة من الزمان .

* * *

وغاب عنترة عن الديار أياماً فى الكسب والمغنم ، ومعه أخوه شيبوب ولما أشرف عليها عائداً وجد فيها حركة غير عادية ، وظن أنها قد طاف عليها طائف من العوادى فأنفذ أخاه شيبوبا إليها ليتعرف حالها ، فجاءه منها بنبأ عظيم ، قال : اجتمع بعض فرسان بنى عبس عدتهم أربعمائة وأمروا عليهم عمارة بن زياد ، وفيهم الحارث ومجيد بن مالك ، وغادروا الأحياء فى طلب المال ، وأوغلوا سيراً فى مناحى الصحراء فما عثروا على شىء ، وبينما هم عائدون وجدوا قافلة حبشية تسوق بين يديها نوقاً وجمالا ، وكان أميرها أبرهة بن يكسوم الحبشى ملك الحبشة ، وكانت هذه النوق والجمال جزية يكسوم هذا من بلاده التابعة له فى أرض الجزيرة ، وهى

تحت إمرة نائبه هاطل بن سافية ، فأغاروا عليها يبغون سلب أموالها ، فخرج إليهم فارس من فرسان القافلة ، ونصح لهم أن يكفوا عن التعرض لجزية نائب ملك الحبشة فى اليمن فأجابوه بطعنة قاتلة ، ثم وقعت الواقعة وانطلقت السيوف والأسنة فقتل أبرهة بن نائب ملك الحبشة وقتل كثير من أتباعه ، وفر المهزومون إلى نائبه هاطل بن سافية وشكوا إليه ما أصابهم ، أما الأموال فقد أخذها عمارة وجماعته وساقوها راجعين إلى ديارهم ، ولكن عمارة بن زياد لعب الخوف فى صدره فقال لأتباعه : إن الأعداء سينفرون من ورائنا لرد أموالهم ، وأرى أن نقسم جماعتنا قسمين : قسم يسبق بما غنمنا من الأموال وقسم يتأخر ليرد النافرين فى طلبنا من الرجال ، فقالوا : دبر أمرنا كما تريد ، فمن أردته منا مع الأموال تقدم . ومن أردته مع الحامية تأخر ، فقال : سأسبقكم فى جماعة بالأموال ، وسأسير بها الهوينى لأكون على مقربة منكم ، وجعل أبناء زهير وبقية الفرسان فى حامية لهم من ورائهم ، ووصاهم أن يتمهلوا فى سيرهم حتى لا يدركوهم ويجتمعوا بهم ، وكان هذا التدبير من عمارة مكراً وخبثاً وجبناً ، فإنه جد فى المسير ، وسلك طريقاً آخر لاتسلكه الحامية من خلفهم ، غير عابئ بما يلقاه رجال الحامية من الوبال والخطر ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى أرض الشربة والعلم السعدى .

وأدرك الحامية هاطل بن سافية فى ألف فارس أشداء ، فلم يجد معهم

أموالهم ، فسألهم : من تكونون من العرب ؟ فقال أحدهم : نحن من بنى غطفان ، فقال : وأين ما سلبتم من أموال ملك الحبشة ؟ فقال : نحن كما ترى صفر اليدين من أموالكم ، وقد مر علينا منذ يومين جماعة من بنى عبس يسوقون بين أيديهم نوقاً وجمالا ، ولا نعرف شيئاً غير ذلك ، فقال : ما أحسبكم إلا كاذبين ، وما أنتم فيما أعتقد إلا من بنى عبس ، ، وقد فر بعضكم بأموالنا وتركوكم من خلفهم تعمية وتضليلا ، فسلموا إلينا أنفسكم حتى ترد أموالنا ، فقالوا : وكيف نسلم أنفسنا رهائن لأموال لا نعرف عنها شيئاً ؟ وكيف تأخذون الأبرياء بذنوب غيرهم ؟ ! إنكم لا تأخذون واحداً منا إلا كرهاً ، ولأن تأسرونا مرغمين خير من أن نسلم أنفسنا طائعين ، ثم قامت معركة دامية أسر فيها الحارث وبعض الفرسان ، وفر من نجا من القتل والأسر هرباً ورجع هاطل منتصراً .

وكان بعض المهزومين أمام عمارة وبنى عبس قد ذهبوا إلى يكسوم نائب ملك الحبشة وأخبروه أن بنى عبس قتلوا ابنه وكثيراً من رجاله ونهبوا الجزية التى كانت معهم ، فأقسم يكسوم أنه غير قاعد عنهم حتى يخرب ديارهم ويقتل رجالهم ، ويسترد أمواله ومعها من أموالهم أمثالها .

وبينما هو يتخذ أهبته ويجمع جنده جاءه كتاب من أميره هاطل بن سافية ، يخبره أنه خرج إلى بنى عبس فقتل كثيراً منهم ، وأسر أربعين ، وأنهم فى قبضة يمينه حتى تأمر فيهم بما تشاء ، فأجابه أن احفظ هؤلاء

الأسرى حتى أبعث إليك فى طلبهم ، وهمّ أن يسير إلى بنى عبس فى جيش كثير العدد ، فتقدم إليه أمير من الجبابرة يدعى عملاقاً وقال له : لا ينبغى أن تخرج فى هذا الجيش إلى قوم همج لا يستأهلون خروجك ، ولكن سلطنى عليهم ، فإن شئت أفنيتهم ، وإن شئت سقتهم إليك فى القيودوالأغلال ، فقال : إن أنت أتيتنى بهم أسرى أعطيتك ما تشاء من المال ، وزوجتك ابنتى واتخذتك لى ولياً حميا .

خرج عملاق هذا فى جيش عظيم ، وسار إلى بنى عبس ، وعرف قيس قدومهم إليه فأخبر عنترة وطلب إليه أن يعد نفسه للقائهم فقال : ما كان لى أن أطفئ نار حرب أشعلها عمارة بن زياد ، وأعلم أن الأحباش أخوالى ، ولا أستسيغ أن أجرد فيهم سيفى ، فقال قيس : ولكن إخوتى ومجيد ابن مالك مع الأسرى وما كان حقد عمارة وفساد طويته وبغضه لك بمقعدك عن حمايتنا وصد الأعداء عنا ، فالخطب جسيم وليس له إلا سيفك وثباتك ، فقال عنترة : الآن لزمنى القتال من أجل إخوتك ، وابن أخيك مجيد بن مالك وفاء لآبائهم ، فلن يمحو الموت ما للناس من يد علينا ؛ فشكر له قيس مروءته ووفاءه ، وجمع له الجموع وسار بهم إلى هذا العدو المغير ، فقتل العملاق وهزم جيشه ، وفر إلى يكسوم فلوله شاكين إليه ما نزل بهم من الدمار ، ونعوا إليه قائدهم العملاق وكثيراً من شداد الفرسان والأبطال ، فجزع وابتأس ، وأقسم ألا يخلد إلى السكون حتى يقضى على بنى عبس ،

وسار فى جيشه الجرار حتى نزل به فى وادى حلوان ، فقال له غاشم بن المقدم : لقد أتعبت نفسك بالخروج لفئة لا بقاء لها أمام جيشك ، وما كان العملاق إلا أجهل الناس ببنى عبس ، والوقوف أمامهم وإحباط كيدهم ورد سيوفهم إلى نحورهم ، ولهذا هزم وقتل كما قتل كثير من جنده ، فإن أنت أذنت لى أن أذهب لقتالهم فسوف يلقون فتكاً ذريعاً ، فقال : وإنى لأخشى أن يحل عليك بلاؤهم فتصبح سبب خزى وعار ، فقال : وهل يستوى غاشم والعملاق ؟ وأين العملاق من شجاعتى وخبرتى ؟ فقال : خذ من يكفيك من فرسان الجيش ، وأرجو أن تصدق وعدك ؛ وتأتينى بهم أسرى مكبلين .

أخذ غاشم طريقه إلى ديار بنى عبس ، كما أخذ بنو عبس طريقهم إلى يكسوم ليقاتلوه ، ولكنهم لم يلتقوا لاختلاف الطرق بهم ، ووصل غاشم وجنده أرض الشربة بعد أن غادرها بنو عبس بقليل ، وكان الهطال ابن أخت عنترة قد جاءه بجنده وأتباعه استجابة لدعوته ، فلما رآهم أبوه الحجاج قال لابنه : هؤلاء الأعداء قد أقبلوا وليس لدى عنترة وجيشه علم بهم لاختلاف طرقهم وسنصلاها منهم ناراً حامية وهزيمة شنعاء ، فقال ابنه : كأنك تود الفرار من وجوههم ؟ ! فقال : ذلك أسلم وأحكم فقال : ولكنه أنكى منزلة وأشنع فضيحة ، وأسوأ منقلباً ، فكيف نترك ديار بنى عبس تعبث بها الأعداء وفينا نفس يتردد ؟ ، إنه الضعف المهين

بالخزى المبين ، ولا بد من قتالهم حتى نطردهم أذلة ، أو نموت كراماً أعزة ، فلما التقوا قتل كثير من الفريقين ولكن بنى غطفان أحسوانقصاً فى الأنفس وضعفاً فى القوى ، فاضطرب أمرهم ، غير أنهم ما لبثوا أن رأوا الوادى يسيل عليهم فرساناً من بنى عامر وكلاب يقدمهم ملاعب الأسنة وغشم بن مالك وعامر بن الطفيل ، ومن بنى هوازن وجشم وغزية ودهمان يقدمهم دريد بن الصمة ، وكان هؤلاء قد حضروا تلبية لدعاء عنترة ، فأفاق بنو غطفان من الهزيمة ، ودبت فيهم حياة الجرأة والثبات ، واستمرت الحرب دائرة وبدت الهزيمة على الأعداء فتبدلت الحال ، وباتوا ليلتهم وكفتهم راجحة ، فلما طلع عليهم النهار وكانوا أكثر عدداً وأشد جنوداً خاضوا الحرب مستقتلين بائعين أنفسهم غير طامعين فى العودة إلى ديارهم ، فكان لهذا الاستبسال أثره البارز فى قهر خصومهم والظهور عليهم .ولكن القدر لم يترك بنى عبس وأنصارهم يذوقون مرارة الهزيمة طويلا ، فقد جاءهم عنترة فى خمسمائة فارس وهجم على الأعداء من خلفهم ، فجعل يجزهم جزا ويحصدهم حصداً ، وأطبق عليهم خصومهم من أمامهم فطحنوهم طحناً ، فلما استيأسوا ورأوا أنهم قد هزموا وعجزوا التمسوا سبيلهم فى القفار هرباً وانتصر عنترة وأتباعه نصراً مبيناً .

* * *

كانت عودة عنترة فى جيشه ضرورة حافزة لحماية الديار من هذا

العدو الذى أراد أن يكيد لبنى عبس وذلك أنه لما أشرف بجيشه على حصن العقاب وهو ذاهب إلى يكسوم ليقاتله بعث أخاه شيبوبا ليكشف له جيش الأعداء ، فجاءه قائلا : إن يكسوم أرسل غاشما فى جيش عظيم إلى ديارنا وقد سلك به طريقاً غير طريقنا وربما وصل الآن وأغار على الأهل والعشيرة ، فأجمعوا أمرهم على القتال فى صباح الغد حتى ينتهوا من هزيمة يكسوم والعودة سريعاً إلى ديارهم ، وفى تلك الليلة رأى قيس بن زهير فى منامه كأن كلاباً سودا وذئاباً وفهوداً أحاطت بالنساء وجعلت تمزق ثيابهن وخيامهن ، فقام من نومه فزعاً وقص عليهم رؤياه ، وقال : إن قلبى يحدثنى بالعودة إلى الديار فإن الخوف عليها يساورنى ، فقال عنترة : لتبق أنت مع الجيش برمته وسأسرع بالعودة فى خمسمائة فارس لأطرد الأعداء وأبطل كيدهم ثم أعود إليكم ، وكان هذا سبب عودة عنترة وقتاله غاشما وجيشه ، ولما انتهى من هزيمتهم وقتل قائدهم وتطهير الديار منهم رحل مسرعاً إلى قيس ومن معه وودع أعوانه الذين جاءوا لمعونته ، فرجعوا إلى ديارهم مشكورين .

أما جيش بنى عبس فإنهم استمروا فى سيرهم تحت قيادة قيس قاصدين حصن العقاب الذى للملك يكسوم والذى أوى إليه الهاطل بن سافية وجنوده ، وكان متين الجدران مرتفع البناء محكم الأبواب فجعل قيس كتيبة من جيشه كامنة فى الفلاة من خلف الحصن ، وجعل الغضبان على ألف فارس وأمرهم فساقوا أمامهم ما كان يحيط بالحصن من أموال ونوق

وجمال ، وأثخنوا رعاتها وحراسها من العبيد قتلا وضرباً ، فخرج الهاطل فى جماعة من جنده من الحصن على صياحهم وحركة سوق الأموال ، فوجد خيل بنى عبس تملأ الفضاء ووجد أمواله قد سيقت وعبيده قد شردوا وقتلوا وأذوا ، وحملوا عليهم ليردوا أموالهم ويطردوهم عن حصنهم ، ولكن الغضبان وجماعته اندفعوا إليهم وضربه ضربة جرحته ، ولولا أن فى أجله بقية لقضت عليه ، وأمسكه بيده وأخذه أسيراً ولجأ من معه إلى الحصن هرباً ، فقال الهاطل : لماذا فعلتم بنا هذا ؟ فقال قيس : لنخلص من أيديكم أسرانا ، فقال : لقد غزاكم غاشم فى دياركم فاصبروا حتى يعود إلينا ليكون جميع أسراكم فدية لنا ، فقال قيس : لا صبر ولا أناة ، فإن غاشما لا يهمنا أمره ، وربما لا يعود إليك إلا خبر قتله ، وأما أنتم فإما قتلناكم وإما فككتم رقاب أسرانا وسلمتمونا الحصن وأبقيناكم فقال : امنحنى الأمان حتى أدخل الحصن ، فقال : لك ذلك ، ولما دخل الحصن قال لجنوده : أصبحنا فى خطر شديد ، ولا طاقة لنا بلقاء هذه الجيوش من بنى عبس ، ففكوا أسراهم وسلموا الحصن لهم حتى تسلم أنفسنا ، ففتحوا أبواب الحصن واحتله بنو عبس فأطلق سراح الأسرى منهم ، وكان فى الحصن أموال كثيرة ، فقال الربيع لقيس : لقد بلغنا ما نرجو من رد أسرانا ، فلنأخذ هذه الأموال ولنعد إلى ديارنا فليس لنا حاجة فى البقاء . وبينما هم على أهبة الرحيل إذ وجدوا جيوشاً كثيرة قد أحاطت بالحصن ،

وكانت هذه الجيوش قد أرسلها الملك يكسوم فى قيادة ابن عمه شريط بن بهيم الحبشى ، بعد أن أخبره المهزومون بسقوط حصنه فى يد بنى عبس ، فقال الغضبان لقيس : إن قعودنا داخل الحصن وأبوابه مغلقة علينا وهؤلاء الجيوش تحاصرنا لا ينفعنا ، فافتح الأبواب لنخرج أنا وأخى غصوب فى فرساننا لنفك الحصار عنا ؛ وفتحت الأبواب وانهالوا عليهم وفرقوهم بعد أن أرووا سيوفهم وأسنة رماحهم من دمائهم ، ثم رجعوا إلى الحصن وأغلقوا أبوابه عليهم ، ولكن شريطاً جمع أشتات جنده ، ورجع بهم إلى الحصن وأحاطوا به ، وأصروا على ألا يتركوه حتى يأسروا بنى عبس ؛ وبعث إلى قيس رسولا فقال له : لا تظنوا أن الحصن يحميكم من الملك يكسوم وجنده وخير لكم أن تسلموا أنفسكم ، وقائدنا شريط يعدكم أن يشفع لكم عند مليكه ليخلى سبيلكم . وإن لم تستجيبوا لما يدعوكم إليه فإن الملك سيهدم الحصن عليكم ، وحينئذ لا تجدون لكم من الهلاك مفراً ، وذهب الرسول ونادى بنى عبس : إنى رسول القائد شريط بن بهيم الحبشى إليكم ، فأدخلوه إلى قيس وبلغه رسالة قائده ، فنهض إليه الغضبان مجرداً سيفه وقال : لولا أنك رسول ولك علينا الأمان لقطعت رأسك ، فارجع إلى صاحبك ، وبلغه أن بنى عبس لا يسلمون وسيوفهم كفيلة بقهر الأعداء وإن كانوا يملئون الفضاء . فرجع الرسول إلى شريط وعلى وجهه صفرة الخوف وبلغه أن القوم لا يخشون بأس أحد ، ولولا ما للرسول من حرمة

لقتلنى الغضبان بسيفه ، وشرح له ما قال ؛ فحشدت جنود يكسوم من حول الحصن ، وظن قيس أن هذه الكثرة ستبدل الحال وتغير الموقف ، وخشى على نفسه وجنده ، وتوقع ما لا يسره ، فقال الغضبان : لأمر ما حبسنا أنفسنا فى هذا الحصن ومن حوله هذه الكثرة ؟ افتح لنا الأبواب حتى أخرج إليهم فى ألفى فارس ، وسأجعلهم يتلمسون النجاة فى هذا القفر الواسع ، أما أنتم فكونوا على أسواره وتصيدوهم بنبالكم ، فإن بقاءنا محبوسين على هذه الحال يطمعهم فينا ويزيدهم تشبثاً بقتالنا ، فاستراح قيس لما قاله وفتحت أبواب الحصن وانهمر الفرسان يقدمهم الغضبان وغصوب ومازن وسبيع فأغرقوهم فى دمائهم ، وقطعوا الرجاء فى نفوسهم ، وجال الغضبان فيهم جولاناً ، ثم اطمأنوا فى حصنهم .

ولما وجد شريط أنه عاجز عن قتال بنى عبس وبخاصة الغضبان وأخوه غصوب عسكر بجنده بعيداً عن الحصن وكتب إلى يكسوم يقول : لقد كنت أعتقد أنى خرجت بالجيش لأقاتل جيشاً من الإنس قدرته فى حدود قدرتى ، ولكنى وجدتنى أمام مردة من الجن لا تنفع معهم قوة ولا حيلة ، وبخاصة أبناء عنترة الذين رمينا منهم بداهية ، وقد كتبت إليك هذا ونحن على حال أليمة من العجز والاستسلام ، فلما قرأه حار فى أمره ، واختلطت مذاهب الرأى فى عقله، وعجب أن يفلس جيش أمام فرد مهما يبلغ من قوة، فقام إليه فارس يدعى الشامخ فقال : لا تحزن على ما أصاب جيشك،



غصوب والغضبان فى الحفرة قرب خيمة شريط والفرسان يحيطون بهما و يأسرونهما

وكلْ إلىّ أمر الغضبان وأتباعه ، وسآتيك بهم أذلة فبعثه فى ألوف من الفرسان وارتقب ما يكون من هؤلاء المردة من الجان .

فرح شريط بقدوم هذا الجيش وشكا إلى الشامخ ما لقى من الغضبان وقال : ها هو ذا عائد إلى الحصن يأوى إليه بعد أن ساق أمامه قطعة من جيادنا على مرأى منا ونحن لا نحرك ساكناً لأن الموت فى سيفه ولن يفوته منا أحد ، فجرى خلفه حتى أدركه قبل أن يدخل الحصن ونادى : ارجع أيها العبد فقد حان حينك ، وإن فررت منه فإنه ملاقيك ، فارتد الغضبان إليه ساكتاً لا ينطق وهجم عليه هجمة أذهبت غروره ، ونبهت فيه حيطته وحذره ، وجالا جولات مفزعات ، وكان قيس مطلا عليهما من سور الحصن ففزع إلى الفرسان وأمرهم أن يدركوا الغضبان ، لأنه يخشى أن يصيبه أذى لم يكن فى الحسبان ، فأسرعوا إليه ووقفوينظرون ما يكون من أمر هذين الفارسين ، وبعد كفاح مرير أصابه الغضبان بضربة قضت عليه ، وأسقطته يتخبط فى دمه ، وتركه إلى الحصن فرحاً بنصره .

أما شريط فإنه قبع فى خيمته يندب حظه ، ويعجب من الغضبان وقوته ، فدخل عليه رجل ماكر من أصحابه يسمى دويبا وقال له : إن هذا الفارس لايجدى معه إلاأن نكيد له ونمكربه ، فقال : لقد ضقت به ذرعاً ، وماذا رأيت من المكر حتى نقضى عليه ؟ فقال : أرى أن تضرب لك قبة محلاة بالذهب والفضة والجواهر الكريمة على مكان عال ، وتجعل طريق

الحصن إليها خالياً من الرجال ، وتقسم جيشك قسمين : أحدهما على يمين هذا الطريق والآخر على يساره ، وتحفر حفرة فيه ، وتجعل غطاءها من شىء لا يحتمل السير فوقه ، وتخفى معالمها على أى سائر ، فإذا رأى الغضبان قبتك طمع فيها وجاء ليأخذها ، فإذا مر فوق سقف الحفرة سقط به فيها ، وإذ ذاك يسرع فرسانك من اليمين واليسار إليه فيمسكونه بأيديهم ويسوقونه أسيراً إليك ، دون ضرب أو قتال ، فسرّىَ عن شريط وأمر رجاله أن ينفذوا ما أشار به ، وتم ذلك فى ظلام الليل .

وفى الصباح رأى القبة الربيع بن زياد على بُعد يشع بريق لآلئها ولكنه لم يتبينها ، وكان له عبد بعيد مرمى البصر . فقال الربيع : يا بنى عمى ! إنى أرى شيئاً يبرق على بعد منا فهل تعرفونه ؟ فجعلوا ينظرون ويحدقون ولكنهم لم يعرفوه ، فأحضر عبده وسأله ، فأرسل العبد بصره فى الفلاة وقال : هذه خيمة من الأطلس الأحمر طرزت بقطع من ذهب وفضة وجواهر كريمة ، وأوتادها من أنياب الفيل ، وحبالها من الإبريسم الأخضر ، فقال الربيع : إنها لخيمة يفخر بها أصحابها على كسرى وقيصر ، فقال الغضبان : وما رأيك فيمن يظلك فيها ، فقال : هيهات أن يصل إليها إنسان ! فأنت ترى بعدها والجيوش الحائمة عن يمين الطريق ويساره متحفزة متوثبة. فقال : لأقفن على بابها تاركاً أخى غصوباً يقلع أوتادها ، وسنجلس فيها جالسة فرحة تكون مظهر عز وإقبال .

واختار الغضبان ألف فارس وأخوه غصوب فيهم ، وسار بهم على مهل وهو يقدمهم وأخوه غصوب بجواره ، فلما كانا فوق الحفرة خر بهما سقفها وسقطا فيها ، وانقض الجيش من الجانبين عليهما وأسروهما ، وما نفعهما دفاع الفرسان الذين معهما ، فقد غلبوا وضاع بأسهم وثباتهم أمام الكثرة الساحقة فى جيش أعدائهم ، فحزن قيس وتوقع هزيمة وفشلا .

وقال الربيع لعمارة أخيه : أرأيت كيف احتلت لهلاك الغضبان وغصوب ؟ ! ولن أقعد عن أبيهم عنترة حتى أقتله كما قتلت أبناءه : فقال عمارة وهو خائف على نفسه : ولكن موتهما فى هذا المكان يجر علينا الهلاك ، ونحن الآن أشد ما نكون احتياجاً إليهما وإلى عنترة أبيهما ، ولا أظنك إلا أن جنيت عليهم وعلينا ، فقال : لا يهمنا يكسوم وجيشه ، فلا تخف فإن معى مكرى واحتيالى ، وسأدبر حيلة لخلاصنا ، وبذلك تصفو لنا الحياة من نكد أبنائه ، حتى أدبر حيلة أخرى لقتل عنترة .

* * *

كان عنترة حينئذ قد قرب بجنده من حصن العقاب ، وبعث أخاه شيبوباً يكشف له أمر قومه ، ولما عرف مصيرهم انقلب مسرعاً إلى أخيه وقص عليه ما عرف ، فجد فى المسير غضبان أسفاً على فقد ابنيه الغضبان وغصوب ، وخاض المعركة بجنده ، وجعل يقتل الأعداء بلا شفقة ولا رحمة ولم يحمهم من عنترة إلا قدوم الليل ، فبات عنترة يتحرق قلبه غيظاً وحزناً

على ولديه ، ونهض فى بكرة غده للقتال ولكنه لم يجد شريطا وجيشه ، لأنهم ارتحلوا ليلا مخافين أموالهم ، فقال عنترة : لأمر ما خلفوا الأموال ونزحوا خفية ؟ هل خافوا سوء المنقلب فهربوا خفافاً وخفية ؟ هل دعاهم ملكهم لينفسوا عنه ضائقة حلت به ؟ هل اعتبروا أسر ولدى الغضبان وغصوب أعظم ربح وغنم ففروا بهما ؟ وسواء علينا أكان شىء من هذا أم غيره فلن أترك آثارهم حتى أبلغ الآمال فيهم ، أما أنت أيها الملك فارجع بالجيش إلى ديارنا فليس من الحكمة أن نتركها دون حماية .

كان بالقرب من عمان جزيرة العود القمارى ، وملكها طود الأطواد ، وهو من أم تسمى سهم النزال ، وجدته لأمه جنية ، وجده لأمه إنسى ، وكانت أمه هذه ساحرة ماكرة ، وكان طود الأطواد هذا يختلف فى خلقته عن أبناء جنسه ، فهو طويل القامة واليدين إلى حد بعيد ، وأصابع يديه تنتهى بمخالب كمخالب الطيور الجارحة ، وكان يصيد الوحوش دون سلاح ، ويأكل لحمها دون نضج أو سواء ، وله جنود لا تحصى عدا ، يحمل إليه الملوك الجزية كل عام مخافة منه واتقاء شره ، ولما أحس يكسوم قوة وكثرة فى جنده تمرد وعصى واحتجز الجزية التى اعتاد أن يرسلها ، فغضب طود الأطواد وعبأ له جيوشاً تقتل رجاله وتدمر كل شىء له ، فلما علم يكسوم بذلك استدعى شريطا وجيشه ، وكان ذلك سبب رحيلهم بغتة تاركين خيامهم وأموالهم .



الملك طود الأطواد يمزق غزالا بمخالبه

غزتهم جيوش طود الأطواد واشتد عليهم الأمر وعظم الشر ، إذ كانت الهزيمة على يكسوم وجنوده ؛ واستمرت الحرب حتى جاء الليل فركن كل فريق إلى مأواه ، ورأى يكسوم أبناء عنترة فى أسرهم فسأل قائده شريطا عنهم فقال : هؤلاء أبناء عنترة بن شداد الذين أبادوا الجيش وما استطاع أحد منا أن ينالهم بأذى ، فقال : وكيف أسرتهم وأنتم عاجزون عن التصدى لهم ؟ فقال : ماتمكنا منهم إلا بالمكر والحيلة ، وبيّن له كيف أسروا ، فقال : وما رأيك إن منحناهم ما يريدون على أن يناصرونا فى هذه الحرب المدمرة ، فقال : لو طاب قلب الغضبان ورضى أن يحارب معنا لقهر وحده جند طود الأطواد ، فقال يكسوم : سأطلب منهم معونتنا فإن أبوا قتلتهم فى ابنى الذى قتلوه واسترحت من شرهم ، وأرجأ تنفيذ ذلك إلى الصباح .

ولكن عنترة ظهر لهم فى الصباح قادماً فرأى جيوشاً كثيرة وحرباً على أهبة الاشتعال ولكنه لا يدرى أين أولاده من هاتين الطائفتين المتحاربتين ، فنزل فى مكان وانتظر وضوح الأمر ، فجاءه إذ ذاك رسول وقال : إنى رسول قائد الملك طود الأطواد ، أرسلنى إليكم ليعرف من أنتم ؟ ! ولماذا قدمتم ؟ ! فإن كنتم تريدون الرزق والكسب فانضموا إلى جيشه وساعدوه وهو كفيل أن يمدكم بما تطمعون فيه من المال ، فقال عنترة : نحن لا نعرف قائدكم ولا ملككم ، وأنا عنترة بن شداد ، وهؤلاء أصحابى وأعوانى !

لنا عند يكسوم أسرى ، وقد جئنا لنستردهم رغم أنفه ، إن لم يردهم إلينا باختياره ، فلما أخبر الرسول قائده بما سمعه قال : ما أجهل هذه الفئة ! كيف يطلبون أسراهم من هذه الجيوش الساحقة وهم فئة قليلة لا غناء لها ؟! ولكننا نرحم جهلهم ، فاذهب إليهم وادعهم إلى أن يكونوا لنا أنصاراً ونحن كفيلون برد أسراهم إليهم ، فقال الرسول : إن القائد يدعوكم إلى أن تكونوا أنصاراً له ويعدكم إن دخلتم فى طاعته أن يرد إليكم أسراكم ، فأجابه عنترة بطعنة فسقط قتيلا . وقال : هذه إجابتنا لقائدكم ليدين لنا بالطاعة ، ويفيق من غروره ، وهى واضحة كل الوضوح أمام عينيه ، فاغتاظ القائد وغضب ، وأمر بعض رجاله أن يأتوه بهذه الفئة القليلة حتى يقتلهم جزاء ما قدمت أيديهم من قتل رسوله على مشهد منه ، وشغل بأمر يكسوم وجنوده ولكنه ما لبث أن رجع إليه فرسانه مهزومين ، فسألهم عن شأنهم مع هذه الفئة فقالوا : أرسلتنا إلى قوم يفيض الموت من سيوفهم ، وقد تعرض لنا منهم أربعة لو بقينا أمامهم لفنينا ولم يبق منا أحد ، فالتفت غاضباً إلى فارس من فرسانه يسمى العطبول وقال اذهب إليهم فى ألف فارس وائتنى بهم مقيدين ، فقال : أنا وحدى بهم زعيم ، فقال : لا تحقر لك عدواً مهما يبلغ من الضعف والقلة ، فسار العطبول فى فرسانه وهو عازم أن يلقاهم ويذيقهم البلاء الذى يزعم ، فأطبق عليهم عنترة بخمسة عشر فارساً وجعل ينثر رءوسهم ويغطى وجه الأرض بدمائهم حتى شق العطبول بسيفه

نصفين ، فأزعج الباقين وفروا إلى قائدهم ، وقصوا عليه ما لاقوا وما شاهدوا ، فأمر جيشه أن يولى وجهه شطر عنترة وأصحابه ليقضوا عليهم ويستريحوا من شرهم ، فأزعج عنترة أمنهم ، وأقلق ثباتهم ، وصرع فرسانهم ، وجعلهم فى حيرة خوف غيبت رشدهم ، وسأل يكسوم عن تلك الفئة التى أكلت بسيوفها فرسان أعدائه ، فقال قائده شريط : هؤلاء بنو عبس ، وهذا حاميتهم عنترة بن شداد ، والغضبان وغصوب اللذان أسرتهما بالحيلة ابناه ولو فرشت الأرض أمامهم بالجنود فإنهم قادرون على سحقهم ، وسينقلبون علينا فى طلب الغضبان وغصوب ابنى عنترة . فقال يكسوم : أدركنى بإحضار أبنائه حتى أمنحهم الحرية والسلامة ، ونطلب منهم عوننا على أن نكون لهم حلفاء أوفياء ، فجىء بهما واتفقوا على ما أراده الملك يكسوم ، وخاضوا المعركة يناصرون أباهم وقومهم ، حتى فر الأعداء ولاذوا بالصحراء مبعدين ، وفرح عنترة بأبنائه كما فرحوا هم بلقائه ، وأغدق عليهم يكسوم من عظيم كرمه وجميل حفاوته ، وبات فرحاً بنصر لم يكن ينتظره لولا معونة عنترة وبنيه .

* * *

وبات جيش طود الأطواد المطرود فى غم وحزن وجعل يقول بعضه لبعض : لولا هذا العبد الأسود ولولا هذان الفارسان فى عسكر يكسوم لقهرنا جيشه ، وبلغنا ما نريد من فوز عظيم . فقال القائد وكان يسمى

خزاعة : سأكفيكم شر هؤلاء الفرسان الثلاثة ، وسأبارزهم غداً حتى أقتلهم أو أرجع بهم أسرى .

وجاء خزاعة طالباً فى تحد صارخ من يبارزه ، فأقبل إليه عروة فى جرأة الأسد وثباته ، وبعد مبارزة طال أمدها واشتد مراسها اختطفه خزاعة بيده ، ورماه بعيداً ناحية قومه ، فانهال عبيده إليه وقيدوه وساقوه أسيراً ، ثم أغواه نصره هذا فنادى : دعونا من مبارزة هؤلاء الصغار ، وأرونا فى هذه المواطن كباركم وأشداءكم ، فجاءه ميسرة ، ولكنه ما لبث أن اختطفه من فوق جواده كما اختطف عروة ، وأسلمه أسيراً إلى عبيده ، فأسرع غصوب إليه وحاول أن يقهره ، ولكن خزاعة أعجل جواده بضربة أطارت رأسه فوقع غصوب على الأرض وابتدره العبيد قبل أن ينهض وساقوه أسيراً مع عروة وأخيه ميسرة ؛ وهم عنترة به ولكن الغضبان سبقه إليه ، فاستمهله خزاعة حتى يبدل جواده ، فأمهله قائلا : هات لك جواداً أو أكثر ، فما أنت إلا مقتول أو مأسور ، وجالا جولات بدا فيها الموت كاشراً عن أنيابه ، ولا يدرى القوم أى الخصمين سيكون فريسة لصاحبه ، وبعد جهد جهيد كان خزاعة فوق التراب صريعاً ، ثم انقض الغضبان على جيشه وتبعه بنو عبس سراعاً ، فقتلوا منهم كثيراً وقتلوا قائدهم الثانى وكان يسمى حجر بن عمرو ؛ ولما رأوا أنهم قد غلبوا تركوا أموالهم وفروا إلى مليكهم طود الأطواد بجزيرته التى تسمى العود القمارى ، ومعهم أبناء عنترة وعروة ، وأصر عنترة

على أن يتبعهم لتخليص عروة وأبنائه من الأسر .

وكان طود الأطواد قد استبطأ جنوده ، فقيل له : لا يضيق صدرك من طول غيبتهم فإنهم لا يغلبون ، وعما قريب يعودون منصورين ؛ وبينما هم فى حديثهم هذا إذ أقبل فلوله المهزومون وقالوا : كنا من الانتصار على يكسوم قاب قوسين أو أدنى ولكن رمينا حينئذ بداهية دهياء ، سحقت رجالنا ، وأكلت قوادنا ، وجعلتنا نولى الأدبار تاركين أموالنا ، فقال : وما تلك الداهية ؟ ! هل أصابتكم صاعقة من السماء ؟ ! هل خسفت بكم الأرض ؟ ! فقالوا : لا هذا ولا ذاك ، ولكن رمينا بعنترة وأبنائه ، وقصوا عليه ما وقع لهم حتى كانوا أمامه ، وفيهم عضوب وميسرة ، فقال : أحضروا بين يدى هذين الولدين ، فلما جىء بهما إليه مقيدين قال : ما أشأم طلعتكما ! ! فمن أى العرب أنتما ؟ ! فأجاب ميسرة فى ثبات وطلاقة لسان طلعتنا شؤم على كل طامع فينا ، وطلعتنا يمن وبركة على من دان لنا بالطاعة ، ونحن من بنى عبس فرسان المنايا ، والمعينون على نوائب الدهر ! فقال : وما الذى جرأكم على قتالنا ! وأوقعكم فى أسرنا ؟ ! فقال فى قوة وجرأة : لا نخاف من أحد ، وها نحن أولاء بين يديك فافعل ما تشاء ، فمن ورائنا رجال يثأرون لنا وإن تعلقت بأكناف السحاب ، وما أنت فى جزيرتك هذه عنهم ببعيد ! فاستعر غضبه وقال لأصحابه : أما سمعتم هذا الذى حبس فى قيوده كيف جرؤ على وعيدى غير خائف من قتلى

وبطشى ؟ ! فقالوا : عجل بهلاكه ، فقال : أى ميتة تريدها أيها الأحمق الذى لا يحسن الخطاب ؟ ! فقال : لو كنا غير مقيدين لأخرسنا لسانك، وأذقناك طعم الموت ، فقال : ولو عرفت قوتى لخرس لسانك وما استطعت أن تقول ما قلت ، وسأريك طرفاً منها قبل أن يحل بك غضبى ، وأمر أتباعه أن يفكوا قيودهما ويذهبوا بهما إلى ميدان المبارزة مزودين بالجياد والسلاح .

وبرز طود الأطواد إلى ثلاثتهم : غصوب وميسرة وعروة ، واحداً فى إثر واحد ، فأصابتهم من سطوته غشية ، فلما أفاقوا ساقوهم إليه فى أغلالهم ، فقال : كيف رأيتم قوتى وبطشى ؟ فقالوا : لا تفتخر حتى تلتقى بحامية بنى عبس ، وقاهر كل ذى قوة من الإنس . وفى تلك الفترة جاءه الرسول ينبئه بقدوم أمه سهم النزال ، لتقف على أخباره وأخبار جنده فخف إلى لقائها وحكى لها ما أصابه من الهزيمة المنكرة ، فقالت : وما الذى عزمت أن تفعله ؟ فقال : عزمت أن أقتل هؤلاء الثلاثة ثم أذهب فى جيش جرار لأقضى على كل عدو لى من الملك يكسوم وعنترة وقومه ، فقالت : بلغنى من رجالك المهزومين أن لهؤلاء الثلاثة رجلا يطلبهم ، وهو فارس لا نظير له بين فرسان العرب ، وقد قيل : من لم ينظر فى العواقب ساق نفسه إلى المعاطب ، وأرى أن تبقى على هؤلاء الثلاثة حتى تظفر بفارسهم الذى لن يسكت عن طلبهم ولن يفوته الثأر لهم ، ثم تقتلهم معه دفعة واحدة وأنت آمن ، وإن فاز بك هذا الفارس ووقعت فى يده تكون

قد أبقيت عليهم وحينئذ يبقى هو عليك ، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ،

وبعد أيام كانت جنوده على أهبة الرحيل ، ومقدارها مائتا ألف مقاتل

فقالت أمه : اذهب بنصف هذا الجيش إلى خصومك ، وسأذهب بنصفه الآخر إلى الجزائر لأدخل فى حكمك ما يلقانى منها ،

نزل بجنوده فى أرض اليمن ، وأمر سعيد بن جوال أن يسبقه فى جماعة من الفرسان ، ليكونوا طليعة الجيش ، وسار عنترة فى مائة فارس إليهم ، وبينما هم سائرون رأى عنترة رجلا يجرى فى عرض البر ، وكان حافى القدمين ، زرى الحال ، يهيم كأنه مجنون شارد ، فأمر عنترة أحد فرسانه أن يأتيه به عسى أن يكون لديه خبر ينفعهم ، فسأله عنترة : من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ فقال : رجل صعلوك قادم من عند ملك فزعت من سطوته الملوك والأمراء ، ضلت ناقتى فخرجت أبحث عنها فى الوديان بين الروابى والآكام فقال : ومن هذا الملك الذى فزعت لسطوته الملوك والأمراء؟ فقال : طود الأطواد ، وقد منحنى تلك الناقة التى ضلت منى ، وهى ناقة قل أن نجدها عند أحد من الملوك ، فهى غزيرة اللبن ، قوية البدن ، سريعة السير ، لا يلحقها منه نصب ، جميلة الخلقة ، ميمونة الطلعة ، فقال : خذ منى خيراً من ناقتك ، وناوله كيساً مملوءاً بالذهب ، فقال : إنك أجدر بالثناء ، فمن أنت أيها الفارس الكريم ؟ فقال : أنا عنترة بن شداد ، فقال : إنك خير من طود الأطواد وأكرم ، فما رأيت منه فى حياتى



الملك طود الأطواد وأمه سهم النزال يتناقشان

ذهباً ولا فضة ، وما لقيت منه إلا كل عناء ومشقة ، وقد سمعت عنك فى بلاده أنك الفارس القاهر ، الذى دانت لسطوته القبائل والعشائر ، وعمّ كرمك البادى والحاضر ، وأما طود الأطواد فما سألته زاداً إلا ردنى مطرودا ، فلما ألحفت عليه بالسؤال أعطانى هذه الناقة بعد أن نهرنى وشتمنى ، وكانت بئس الناقة ، فهى هزيلة ضعيفة ، كأنها خلقت من عظم وجلد ، لا تجود بلبن ، ولا تجنى من اقتنائها إلا الفقر والعوز ، ركوبها عذاب ، والمشى من خلفها عقاب ، مقطوعة الأذنين ، زوراء عوراء بتراء ، لاتبعث فى النفس إلا كل هم وبلاء ، فضحك عنترة ، إذ وجده قد ذم الناقة ومانحها بعد أن مدحها ومدحه ، وقال : أقم عندنا ولك ما يغنيك ويرفه عيشك ، وبينما هم فى ذلك الحديث رأوا غبرة واسعة لجيش قادم ، فقال الرجل : اطلب النجاة لنفسك ومن معك ، فقال عنترة : وما اسمك أيها الرجل ؟ ! فقال : اسمى دحروج ولا تبطئ فى طلب النجاة قبل الفوات ، فقال عنترة : وممن أطلب النجاة ؟ فقال : هذا سعيد بن الجوال أرسله طود الأطواد فى هذا الجمع الحاشد ، ليكون طليعةلجيشه الذى لا يحصى عدا ، وأخاف أن يرانى معكم ، فقال : وماذا يكون إن رآك معنا ؟ فقال : يشتعل رأسى شيبا ، ويأخذ منى هذا الكيس غصبا ، فضحك عنترة وقال : طب نفسا فما هو بواصل إليك ، وما هو بآخذ منك شيئاً ، فقال دحروج : أرسلنى مع من تشاء من أصحابك فى

طلب المدد لأنى أراكم فى قلة لا تدفع ولا تنفع ، فقال عنترة : سترى أن الفارس منا بألف مما تعدون ، ثم قال للغضبان خذ معك عشرة من الفرسان وسر بهم حتى تكون من وراء هؤلاء القادمين ، فإذا رأيتنى حملت عليهم من الأمام فاحمل عليهم من خلفهم ، ولا تمكنهم من الهرب حتى نجهز عليهم ونتركهم موطئاً لكل سائر ، وزاد الرعب فى صدر دحروج فقال : لا أزال فى دور الإبلال من مرض كان قد ألم بى ، ولم يبرأ جسمى من الضعف الذى اعترانى بسببه ، وأريد أن أذهب إلى عسكركم فى أماكنهم حتى تنتهى من القضاء على هذا العدو المقبل ، وكان عنترة قد عرف بفطنته أن الرجل بخوفه يتعلل بالمعاذير ليترك ميدان القتال ، وينأى عن مواطن الخطر فأراد أن يمزح وقال : لا تفارقنا حتى نسير معا ، فقال : أخاف أن أمرض فأشغلك عن عدوك ، أو تهملنى فيقال عنك إنك أهملت ضيفك ، فضحك وقال : ألست رجلا تأبى عليه رجولته أن يقعد عن مناصرة من أكرمه ، فقال : ألم أقل لك إن اسمى دحروج ولست أدعى بالناصر ولا المعين ، لا كانت الناقة ولا كان مهديها ، فصحبتها شقاء ، وفرقتها بلاء ! فضحك عنترة وقال : لقد شقيت بصحبتها كما ادعيت ، وغنمت بفرقتها كما علمت ، وما أنت براحل عنا حتى ترى الفرسان فى المعركة يقاتلون لتكون راوية تتحدث إلى الناس بما رأيت ، فقال : هيهات أن يترك الفزع لى لساناً ينطق ! ! وكان سعيد بن جوال قد أرسل رسوله

إلى عنترة فقال له : إنكم عصبة قليلة العدد ، ونصيحتى لكم أن تدخلوا فى طاعة مليكنا طود الأطواد لتنعموا بالغنى والعيش الرغيد ، فإن أبيتم فخلوا أموالكم وانجوا بأنفسكم ، وإلا تفعلوا حملت إلى قائد المليك عصيانكم ولا أدرى بعد ذلك ما سيحل بكم من ألوان الشقاء والفناء ، فطعنه عنترة فى صدره برمحه فوقع عن جواده جثة لا تتحرك ، ورآه سعيد بن جوال فاستفزه الغضب ، وتقدم جنوده إلى هذه العصبة فابتدره عنترة بضربة من سيفه قطعت عنقه ، وحمل هو وأنصاره على جيشه من الأمام كما حمل الغضبان ورجاله عليهم من الوراء ، فوجدوا أنفسهم غارقين فى بحر من المنايا ، ولا منجاة لهم إن تقدموا ، ولا مفر لهم إن أدبروا ، فتسللوا من الجانبين هرباً ، وفر من نجا منهم لا يلوى على شىء ، وجمع عنترة ورجاله أسلابهم ونزلوا فى خيامهم حتى الصباح . وكان دحروج قد انزوى بعيداً عن المعركة يغط فى خوفه ، ويرتعش من فزعه فلما انتهت المعركة بفوز عنترة تقدم إليه وقال : لقد أتعبت نفسك فى قتال هؤلاء الكلاب ، ولو أنك كلفتنى قتالهم لأرحتك منهم وجعلتهم جثثاً منشورة ، فضحك عنترة وقال : لا أرضى أن أتعبك فى قتال هؤلاء الضعفاء ، وربما احتجنا إليك فى المعارك الخطيرة فقال : العين لا تعلو على الحاجب يا عنترة ، وما دمت فينا فلن أحمل سلاحاً ، فأنت كافلنا وحامينا ، ثم أمر عنترة عشرة من فرسانه أن يذهبوا بالأسلاب إلى عسكره ، فقال دحروج : يحسن أن أسير معهم فربما

قابلهم فى الطريق من يعوق سيرهم فأرده عنهم ، فضحك عنترة وقال : لقد قيض الله لنا هذا الرجل الذى أضحكنا وشرح صدرنا ، وأمر فرسانه أن يأخذوه معهم وأن يكرموه حتى يرجع إليهم .

ولما استبطأ الملك طود الأطواد سعيد بن جوال أمر جيشه بالسير لمؤازرته لأنه ظن أن قائده انتصر وشغله انتصاره عن العودة إليه ، وعرف عنترة قدوم جيش الملك فجعل جيشه على جانبى الطريق وارتقبوا وصول جيش طود الأطواد ، فلما كانوا بينهم انقضوا عليهم وأعجلوهم بسيوفهم ورماحهم والقوم لا يدرون من أين جاءهم هذا الضرب والطعن ، وكيف نزل بهم الموت بغتة من كل جانب وهم لا يستطيعون دفعاً ولا صرفاً ، وطلع النهار والقوم مدبرون لا يلتفتون إلى شىء مما خلفوا وتركوا ، فجمع أصحاب عنترة الأسلاب ورجعوا إلى عسكرهم فرحين ؛ وهناك قسم عنترة المغانم على أنصاره ، ودحروج يتنقل بينهم وهم يضحكون منه ويتغامزون عليه وهو يقول : لله در عنترة ! ما أجرأه ! وما أشد فتكه وبطشه ! والتفت إليه قائلا : أطال الله عمرك ، وبارك فى سيفك ورمحك وجوادك ، لا تنس أن تأخذنى معك كلما غزوت أو قاتلت ، فسترى من شجاعتى وبأسى ما تطيب له نفسك . ثم مد يده إلى ستر كبير من صنع الروم فأخذه وقال : هب لى هذا لأجعله غطاء لعيالى يقيهم شر البرد وقسوته ، فضحك ووهبه له ، فزاد به سروره وجعل يرقص ويقول : أنعشنى عنترة وأغنانى ، وأكرمنى

وهنانى ؛ والفرسان من حوله يضحكون .

* * *

أما طود الأطواد فإنه جمع جموعه وساقهم أمامه ، ليلحق بسعيد قائده ويناصره ، فلما وصلوا إلى المكان الذى قتل سعيد هذا فيه وهزم جمعه وقفوا مبهوتين إذ وجدوا الأرض مفروشة بجثث القتلى ، فقال له الأمير ضبية ابن عامر : ها هم أولاء فرسانك وقائدهم سعيد قد أصبحوا مواطئ لسنابك الخيل ، وما فعل بهم هذا إلا عنترة بن شداد وعصبته ، فغضب واستكبر وقال : كيف يفعل هذا برجالى ولا يخشى سطوتى ؟ ! ثم أمر الجيش بالمسير حتى أشرفوا على عنترة وجمعه فضربوا خيامهم وباتوا ليلتهم ليبدءوا القتال فى غدهم ، وعرف عنترة ذلك منهم فباتوا فى ارتقاب الصبح ليردوا هذا العدو مقهوراً ، ووصى ابنه الغضبان أن يقوم بحماية ظهره ، فقال الغضبان : لا تفكر فيمن خلفك ، فظهرك بسيفى دونه نيل السحاب .

وفى الصباح رجفت الراجفة والتحم الفريقان، وتناثرت الرءوس، وعنترة يمزق الجموع شر ممزق ، حتى جاء الليل ، وسكنوا فى منازلهم ، فجمع طود الأطواد كبار قومه وقال : لقد رأيت أن أكتب إلى هذه الفئة متلطفاً، فعسى أن يكون ذلك وسيلةإلى مصالحتهم واتقاء شرهم ، وسننظر فى إجاباتهم ، فقالوا : ذلك أحسن علاج لموقفنا هذا فكتب إلى عنترة : إن التنافس فى البقاء طبيعة ، وأنت واجدها فى كل ما تقع عليه عينك ،

وقد يتحول هذا التنافس إلى تنازع وخصومة ، ثم إلى حرب وقتال ، والبقاء فيها لمن غلب ، وقد أبديت فى قتالك هذا من الشجاعة ما أثار العجب ، وجعلنى فى الإبقاء عليك راغباً ، وإن كان ما فرط منك لجيشى خطيئة ، فإن أردت أن أغفر لك ما اجترحت يداك فأقبل إلينا طائعاً ، ولك منى بعد هذا أن أوليك ما تريد من إطلاق الأسرى ، وحسن الجزاء . وقد بعثت إليك بهذا الكتاب إشفاقاً عليك ، وإبقاء على مواهبك التى نالت إعجابنا ، فإن رضيت وأطعت فقد اهتديت ونعمت ، وإلا فقد جنيت على نفسك وأبنائك ومن معك ، وأمرك بين يديك والسلام ، فلما ناوله الرسول الكتاب أمر أسيد بن ماجد فقرأه ، فتبسم عنترة وأمر ابنه الغضبان أن يجرد الرسول وصاحبيه من الخيل والسلاح ، وقال لهم : ارجعوا إلى صاحبكم وبلغوه أنى عنترة بن شداد ، وفى الغداة يذوق منى طعم الموت ولا ينفعه مال ولا كثرة أجناد ، فقصوا على مليكهم ما سمعوا فى حضرة الكبراء من أتباعه ، فاشتد الأمر عليهم وباتوا فى حيرة لا يدرون ما يفعلون إلا أن يقاتلوا مرغمين .

وفى الصباح وقعت الواقعة ، واندفع جيش طود الأطواد إلى القتال بجملته فما وجدوا من عنترة وصحبه إلا قتلا أطار من فرسانهم العقول ، وجعلهم يتلمسون إلى الفرار كل سبيل ، وانتهى النهار وهم فى أسوأ حال ، وبات طود الأطواد وهو عازم على أن يبارز أعداءه ليقتل عنترة وكبراء

فرسانه ، وليسهل عليه بعدهم أن ينتصر على بقيتهم فى يسير من الجهاد ، ولما جال فى الميدان برز إليه عنترة قائلا : جاءك من يداوى رأسك بسيفه ، ويشفيك من الحيرة التى تساوره ، وبعد جهاد عنيف تمكن عنترة من عنقه ، وأمسكه بيده ، وضرب صدره بيده الأخرى ضربة خلطت عظامه بلحمه ، فوقع ميتاً ، ثم حمل بنو عبس على جيشه فأخذ قومهم الخوف والهزيمة فأدبروا هاربين ، وكان طود الأطواد قد أناب عنه رجلا معروفاً بالعقل وحسن الرأى يسمى الشامخ بن سعيد ، فلما رأى مايكه قد قتل وأن جيشه قد هزم ، جمع كبار قومه وقال لهم : إن عنترة قتل ملكنا وهزم جيشنا ، وإنهم لا يسكتون عنا حتى يغزونا فى عقر دارنا ، وما نحن بقادرين على ملاقاتهم ، وأرى أن أفك رقاب أبنائه وأبالغ فى إكرامهم وأطلب إليهم أن يردوا عنا هذا البلاء ، وإلا نفعل ذلك أضعنا الملك وخربنا البلاد ، فقالوا : ذلك خير وأبقى ، وهو ما فعله يكسوم فأصبح فى حماية عنترة وعاش مطمئناً لا يخشى أحداً ، فأحضر ميسرة وغصوبا وعروة وعرض عليهم ما اتفقوا عليه ، فلما قبلوا ورضوا ودعوهم إلى أبيهم عنترة فى ثلة من الخدم والعبيد والإماء ، مزودين بالأموال والجياد ، ففرح بهم واستراح إلى ما أبرموه من اتفاق ، ثم أخبروه أنه يدعوهم إلى ضيافته ، فلبى عنترة دعوته وسار مع أبنائه فى ثلة من فرسانه ، وأسبغ عليهم سعيد كرماً وحفاوة .

* * *

ورأى عنترة مظاهر الألم بادية على وجه عروة وهو فى مجلس الضيافة فاختلى به وسأله : ماذا بك يا عروة ؟ فقال : لقد كنت ألوم المحبين ، وأنقم منهم كثرة الشكوى والأنين ، حتى وقعت فى شرك المحبة فأدركت أنى كنت قاسياً فى لومى وعذلى ، فقال : ومن أحببت يا عروة ، ما كنت إلا سجيناً ، وما عهدناك محباً قبل أسرك ؟ فقال : كنا محبوسين فى حجرة بجوار قصر الملك طود الأطواد ، وكانت أخته ودعة تطل علينا من قصر أخيها وتتحدث إلينا طويلا ، فملكت فؤادى لفرط جمالها ، وعذب حديثها ، وسلامة فكرها ، فأخفيت ذلك عن ابنيك خجلا وحياء ؛ وقد فارقتها بانطلاقى من الأسر ، ولكن ذاتها لم تفارق قلبى ، ولن تصفو لى الحياة حتى أتزوجها ، فقال : طب نفساً فسأمكنك من رغبتك فى صباح الغد . على أن يكون ذلك برضاها ، فقد أعطيتهم الأمان وعاهدتهم على السلام .

وفى الصباح أتى إلى عنترة كبار القوم وشيوخهم وائتنسوا بمجلسه ، ثم دعوه إلى قصر الملك ليحضر المأدبة التى أقاموها له ولكبار فرسانه ، فحضروا وأكلوا من موائد مصفوفة حوت من فاخر الأطعمة ألواناً مختلفة .

وبينما هم يأكلون ويشربون إذ جاءهم نبأ خطير ، وذلك أن سهم النزال أسرت الملك يكسوم وبعضاً من فرسانه وبعثت بهم إلى الجزيرة ، وقد أصرت على ألا تعود حتى تفتح البلاد وتلتقى بابنها طود الأطواد ، فأمر الشامخ بإحضارهم إليه فلما وقعت أعين الأسرى على عنترة اطمأنوا

واعتقدوا أنهم قد نجوا ، ونهض عنترة إلى يكسوم فحياه واحتضنه وامر بفك قيوده كما فعل ذلك بأصحابه الذين هم فى الأسر معه ، وأجلسه بجانبه ، وهنأه بسلامته فقال : وأى سلامة وقد ضاعت البلاد ، وفقد المال والأهل والأولاد ؟ ! فقد غزتنا سهم النزال بجيوش قاهرة فتحكمت فى البلاد وأرسلتنا أسرى ، وأقامت هناك حتى تلتقى بابنها طود الأطواد ، فقال عنترة أما ابنها فقد ألحقته بالسابقين من الهلكى وحدثه بما كان ، ثم التفت إلى الشامخ وقال : بدت لنا رغبة فى الرحيل غداً ولكن بقيت لنا عندك حاجة ذات بال ، وذلك أن تساعدنا فى زواج ودعة أخت المليك الراحل من صديقى عروة ، فاستأذنها فى ذلك وتلطف معها فى القول واتخذ كل سبيل لرضاها وما أنا بغاضب إن أبت ، لأنى لا أنقض عهدى معكم ، ولن أفعل ما يزعجكم ويبلبل خاطركم ، فلما كاشفها برغبة عنترة قالت : لقد علمت أنى أبيت فى حياة أخى أن أتزوج الملك سمور صاحب جزيرة صافور وهو على ما تعلم من القوة والجبروت وامتداد الملك ، والآن أخشى أن يطمع فىّ ويأخذنى إليه رغم أنفى ، وقد رأيت فى عروة الشهامة والمروءة والفصاحة فلا مانع لدى أن أتزوجه ليكون حجاباً بينى وبين الملك سمور ، ولأن أعيش مع هؤلاء العرب الكرام ذوى المروءة والنخوة خير من أن أعيش مع ذلك الشيطان وإن كان يملك الأقطار ، فرجع الشامخ فرحاً وبشر عنترة برضاها عن رغبة ، وما مضى إلا أيام حتى كانت زوجة عروة ، وشكر

لعنترة فضله ومعونته ثم ودعت أهلها وعشيرتها ورحلت معهم وفيهم يكسوم ورجاله .

وكانت سهم النزال قد طال انتظارها ولم تلتق بولدها فسألت عن ذلك فأخبروها أن عنترة قتله وهزم جنده وأقام على الجزيرة الشامخ خلفاً لابنك ، فإن رأيت أن تكتبى إلى الملك سمور صاحب جزيرة صافور ليعينك على عنترة ورجاله ، على أن تزوجيه ابنتك ودعة كان ذلك خيراً وأحسن مصيراً ، فهو ملك جبار وجيوشه تملأ القفار ولن يستطيع عنترة وقومه أن يقفوا فى وجهه ساعة من نهار . وما كادوا يتمون حديثهم هذا حتى رأوا غبرة كثيفة قادمة ، وأخبرها روادها أن عنترة قد أقبل فى رجاله فانظرى ماذا تفعلين ؟ فقالت : سأريكم ما أفعل بهم ، وسأجعل أموالهم غنيمة لكم دون قتال منكم ، ثم أمرت جنودها أن تدخل المدينة ويغلقوا عليهم أبوابها وجلست هى على سورها تدبر ما تفعله .

وجد عنترة وجيشه المدينة مغلقة فباتوا ليلتهم ينتظرون ما يكون من فتح الأبواب والتقاء الجيوش ، وفى الصباح خرج من المدينة ما يقرب من ستة آلاف فارس وابتدأ القتال ولكن بنو عبس ما لبثوا أن رأوا غمامة سوداء ترميهم بحجارة وشهب من نار ، ورأوا خيلا تجرى هنا وهناك ولا تحمل فرساناً ، فعلموا أنه السحر لجأت إليه سهم النزال ، فعولوا على ألا يصيبهم مكروه ، وحار عنترة واضطرب ، إذ لم يجد أمامه من يحاربه وانقضى النهار وبطل القتال ليستأنف فى الصباح ، وبينما عنترة جالس ليلته هذه فى وجومه

وحيرته إذ دخل عليه عروة ضاحكاً مستبشراً فقال عنترة : كيف تضحك ونحن فيما ترى فى هذا البلاء الذى صب علينا من مردة الجن الذين يروننا ولا نراهم ، فقال عروة : لأنى وصلت إلى من يفرج عنا هذه الكربة زوجتى ودعة أحزنها ما أحزننا وقالت : أن أمى ساحرة ، ولكنى أمهر منها فى السحر ، وسأبطل فى الصباح سحرها فأرد كيدها فى نحرها ، وقد جئتك ضاحكاً لأبشرك بما عرفته من صلاح الحال ، فقال عنترة : لقد أبطل السحر شجاعتنا ، وما كنابقادرين على شيء مما يفعله الجن بنا لأنهم يروننا ولا نراهم ، ولولا ودعة ما نفست عنا هذه الكربة ، فقال الغضبان : إن كانت ودعة ساحرة مثل أمها على نحو ما رأينا فلا بد من قتلها ، ولا ينبغى أن تصحبنا إلى ديارنا ، فربما أصابها غم أو شيء يؤلمها ويعكر صفوها فتؤذينا بسحرها ، فقال عنترة : اسكت فعسى أن تعلمنا السحر ليكون عدة لنا إذا ما وقعنا فى مثل ما نحن فيه الآن . وقال لهم : اذهبوا إلى يكسوم فى خيمته وبشروه بما سمعتم حتى ينام مطمئناً ، فشكر يكسوم لعنترة جميل فضله ومعروفه .

وفى الصباح قالت ودعة لزوجها : بلغ عنترة أن يأمر جنده بأن يدخلوا المدينة إذا فتحت أبوابها ، وإذا أحسوا زلزالاًأو رأوا الأسوار تتساقط عليهم من فوقهم فلا يخافوا ولا يهربوا ، فلن يسقط عليهم شيء منها ، وإنما يرون ذلك بأعينهم دون أن يصيبهم منه أذى أو مكروه .

ثم ماذا ؟

وفى الصباح بدأت سهم النزال حربها بمبارزة الغضبان ، وبعد مدة من المبارزة آحست أنها تحارب بسحر فوق سحرها ، فاضطربت وأصابها الغضبان بضربة قاتلة فانتهى أجلها ، ودخل الجنود المدينة وفتكوا بجنود سهم النزال حتى فنى أكثرهم ، ولم ينج منهم إلا من هرب وغاب فى أعماق الصحراء . وجلس يكسوم على عرشه شاكراً لعنترة فضله ، ثم ودع بنى عبس ومنحهم الهدايا والأموال .

٣

ونفد ما لدى عنترة من خمر ، فقال : يا عروة ، تأهب أنت ورجالك للسفر ، كى نلتقى بتجار الشام ، لنحصل منهم على حاجتنا من الخمر ، ورغب الغضبان وإخوته فى مصاحبته فقال لهم : لا ينبغى أن تخلو القبيلة منكم فى غيبتى ، فربما طرقها مكروه ما كنا نتوقعه ، وما أنا بغائب عنكم إلا مدة الحصول على حاجتنا ، ثم سلم على عبلة ، أفهمها مقصده ؛ وكان عروة وجماعته فى انتظاره ، فركب وساروا ، وتبع عنترة فرسان قومه ، وتقدمهم شيبوب وسأله عن غايته ، فقال : سر بنا إلى أرض يكون الخمر فيها بكثرة ، فقال : حينئذ نسير إلى أرض تيماء ، ولها طريقان : طريق من أرض العراق ، ومقداره سير شهر كامل ، وطريق من صحراء النفود ، ومقداره سير أحد عشر يوما ، ولكنى سأسير بكم من أرض العراق ، فقال عنترة : ولمَ أخترت هذا الطريق ؟ فقال : فى طريق النفود واد يسكنه

الجان ، ولا يستطيع أحد أن يعبره ، فقال عنترة : ويحك يا شيبوب ! نحن لا يخيفنا إنس ولا جان ، فسر بنا فى طريق النفود ، ودع الجن يخرجون إلينا . فسار بهم شيبوب حتى أشرفوا على واد فسيح به أشجار عاليات : فسأل عنترة شيبوبا عنه فقال : ذلك وادى الشيطان لا يسلكه إنسان ، فقال عنترة : انزل بنا فلا بد من المبيت هنا ، حتى أنظر ما فيه، فنزلوا وحطوا عصا الترحال . ثم أخذ عنترة سيفه ودرقته ، وانسل إلى الوادى يجول فيه هنا وهناك ، حتى كان أمام شجرة « شوم » ضخمة ، جذعها يملأ أحضان أحد عشر رجلا ، أمسك كل منهم بيد صاحبه ، ينبع الماء الصافى من عين بجوارها ، ويسيل فى الوادى متعثراً فى حصاه ، فوقف أمامها ينظر ويفكر فى قدرة الله . وبينما هو غارق فى تفكيره ، دوّى صوت كأنه الرعد ، وسمع قائلا من تلك الشجرة يقول : يا نسل الأشرار ، غرك الهجوم على الإنس فى ديارهم ، فجئت تهجم على الجن فى مساكنهم ! أنا الصمصام بن الشلقام الذى جئت إليه لحتفك ، فأبشر بموتك .

كان هذا الجنى من المردة الذين عصوا سليمان عليه السلام ، حبسه كاهن بجوار تلك الشجرة ، فهو لا يفارق جذعها ليلا ولا نهاراً ، وجعل قتله بحسام فارس حجازى ، إذا لمسه بحسامه ، قطع رأسه ، وبان له ، وكان هذا الجنى يعرف ذلك ، فإذا مر به إنسان ظنه ذلك الفارس الحجازى فيرعبه بصوته . فيفر هارباً من خوفه ؛ وشاع هذا بين العرب ، فلا يطرق هذا المكان طارق . إلا من يجهله ، ولا يعرف عنه شيئاً .

وتقدم عنترة نحو الشجرة ، يتحسس ، مصدر الصوت بسيفه ، والجنى يروغ بين يديه ، حتى لمسه السيف فقطع رأسه وصاح الجنى قائلا : اضربنى ضربة ثانية ؛ وهم عنترة بها وإذا بصائح يقول : احذر يا أبا الفوارس أن تضربه الضربة الثانية ، فإنك إن ضربته عادت إليه الحياة ، وتسلط عليك بشرّه وأذاه ، وقص عليه قصته . ثم قال : واحذر يا عنترة قومه وأهله ، وهم يسكنون فى وادى صارخ ، وبينك وبينه الآن عشرة فراسخ ؛ فقال عنترة : ومن أنت أيها المتكلم الذى لا أراك ؟ فقال : أنا من ملوك الجان المؤمنين ، فقال : شكراً لك ، وأخذ رأس المارد ورجع به إلى قومه ، فلما وصل إليهم ألقى رأس الجنى أمامهم وهو يضحك ويقول : لا تخافوا من رأس هذا الشيطان ، فسأله عروة عنه فحكى له ما جرى .

ثم ساروا يومين أشرفوا بعدهما على مدينة بيضاء كأنها الفضة النقية ، فسأل أخاه عنها فقال : هذه المدينة البيضاء ، ويقال : إن الذى بناها الإسكندر الأكبر ، ويسكنها الآن ملك نصرانى يدعى الليلمان بن مرقوم ، وقومه نصارى ، وصناعتهم عصر الخمور ، لأن العنب أكثر أشجارهم فى أرضهم ، وليس فى بلادهم أشجع من ملكهم هذا ؛ وسمعت أنه أغار على بلاد النعمان فى عشرة من فرسانه ، فساقوا أمامهم ما فيها من أموال وجمال وخيل ، وبلغ المنذر ذلك ، فجدّ فى طلبه ، وأرسل أربعين ألف فارس من خلفه ، فلما رآهم الليلمان على أثره قال لصحبه الذين معه : لا يتقدم أحد منكم لمساعدتى ، فقد عزمت أن ألقى هذه الآلاف وحدى ، ثم عدا



عنترة يقطع رأس الجنى أمام الشجرة

عليهم وحده ، وردّهم إلى النعمان مهزومين . فقال عنترة : لقد أسمعتنى يا أخى أضغاثاً من الأحلام ، ولا بد لى من سحقه ، ونهب مدينته ، وإلا فما أنا عنترة . فدلنى يا شيبوب على مراعيهم ، ليكونوا مائة ألف فارس من أمثال من وصفت ، فنزل بهم شيبوب فى جبل هناك ، وباتوا فى حراسة عنترة حتى طلع النهار .

وساح رعاة المدينة البيضاء بالدواب فى المراعى ، وما لبثوا أن رأوا عنترة يسوقها أمامه غير عابئ بهم ، فتصايحوا فى كل ناحية ، وفر بعضهم إلى المدينة ، يطلب النجدة ، فخرج من فيها من الفرسان ، يقدمهم الليلمان ، وهو يهمهم كأنه الأسد الغضبان ، فلما قرب من عنترة صاح وزأر ، فتلقاه عنترة بقلب أثبت من الجبل ، واشتبك الفريقان ، ودارت معركة حامية ، وما زالوا فى قتالهم جادين ، حتى احمر وجه الأفق إيذاناً بغروب شمسه ، فنادى شيبوب أخاه عنترة ، يؤنبه على إهماله وتقصيره ، وقومه يساقون إلى الموت سوقا ، فالتهبت فى صدره نار الحمية ، وحمل على الليلمان حملة بطش وقوة ، وضربه بزج رمحه ضربة ألقته على الأرض ، فأسرع إليه شيبوب وكتفه ثم ساقه أسيرا ، وزاد هذا الأسر نار القتال شدة وضراماً ، حتى انقضى النهار وتحاجز الفريقان ، وكان الغلب لعنترة بن شداد .

وفى اليوم الثانى نزل عنترة إلى الميدان متحدياً ، وأنذر العدو تشتيتا فى الجموع وتخريباً فى الديار ، ونهباً للأموال ، وسبيا للنساء . وطلب فرسانهم أن يبارزوه فما خرج إليه أحد منهم ، ونشبت المعركة بين الجيشين ، وحمل

عليهم عنترة حملة حاسمة ، وأدار سيفه فيهم من كل جانب ولما ضاقت فى وجوههم المذاهب ، ولوا الأدبار مهزومين . ورجع عنترة وجماعته إلى خيامهم واستقرت بهم أماكنهم ؛ فأحضر الليلمان بين يديه وأمر شيبوبا أخاه أن يضرب عنقه ، فقال الليلمان : إنى سائلك قبل أن تقتلنى ، فقال عنترة : سل ما شئت فما سؤالك بضائرى . فقال : ما رأيت أثبت منك جنانا ، وأصدق ضربا وطعنا ، فمن أنت ؟ فقال عنترة : ما أجهلك بالفرسان ، أنا فارس عبس وعدنان ، أنا عنترة بن شداد فقال : الآن عرفت ربى إذ استجاب دعائى ، فقد سمعت عنك ، وطلبت من الله أن يجمع بينى وبينك ، وقد استجاب الدعاء ، فجمعنا على مائدة من الدماء فاتخذنى لك غلاماً وعوناً ، فأنا ابن صاحبك وصديقك مقرى الوحش ، فاهتز عنترة هزة الكريم الوفى وقال : أطلقه يا شيبوب ، وأراد الليلمان أن يقبل رجل عنترة فأبى ، وضمه إلى صدره ، وربت على ظهره ، وتذكر مقرى الوحش والده ، فغاب ذهنه ثم انتبه وقال : لا يفارقنى الحزن على أبيك ! فقد كان أوفى صديق وخير معين . ثم سأله الليلمان : ما أتى بك إلى هذه الديار ؟ فقال : حاجتى إلى الخمر ، ففرح الليلمان وقال : قضيت حاجتك يا سيدى ، فعندنا منها شىء كثير ، ولكنى لا أرضى لكم بالرواح إلا بعد أن تلبثوا فى ضيافتنا ثلاثين يوماً ، ثم ركب جواده ، وعاد إلى المدينة يسعى به ، فتلقاه أهلها بالفرح والغبطة ، وسألوه عما جرى له ، فحكى لهم ما كان ، فانشرحت صدورهم بمصادقة عنترة ، وخرج ميسرون

ملك المدينة فى رجاله وعسكره ، ولما قربوا من عنترة ترجلوا ، ثم سلموا عليه وعلى رفقائه ، ودعوهم إلى مدينتهم ، فركب عنترة جواده ، وسار هو ورفقاؤه ، وميسرون عن يمينه ، والليلمان عن شماله ، ولما دخلوا المدينة استقبلهم أهلها استقبالا كريماً ينم عن صداقة وأخوة ، وأقاموا نهارهم فى ظلال وارفة من كرمهم ، وأرادوا العودة إلى خيامهم ، ولكن ميسرون كان قد أخلى لهم داراً خاصة بهم ، فباتوا فيها ، وفى الصباح دعاهم رسول الملك إلى الخروج معه للصيد والقنص ، فركب عنترة وعروة وبقية الرفقاء ، وركب ميسرون فى خواصه وحجابه ، وساروا حتى كانوا فى واد كثرت أشجاره ، وتعددت غدرانه ، وانتشرت على الأغصان طيوره ، وأشرقت فى أرضه أزهاره ؛ وكان هذا الوادى كثير الوحوش والغزلان ، لأنه خاص بالملك لا تطؤه قدم صائد . فصادوا كثيراً ، وكان عنترة أكثرهم صيداً ، ثم دخلوا البستان وساروا حتى أشرفوا على قصر مرتفع البناء ، وهو قطعة من البلور الصافى ، يرى باطنه من ظاهره ، وظاهره من باطنه ، وأمامه صخرة عالية كأنها الياقوت الأحمر ، عليها تماثيل وصور مرسومة ، فدخل بهم ميسرون القصر ، وجالوا فى أرجائه ، وهم فى عجب من حسنه وجماله ، ثم عادوا إلى البستان وفرشوا بسط الحرير وجلسوا ، ثم أكلوا ، ودارت عليهم كئوس الخمر من يد جارية رومية جميلة فاتنة ، ثم قال ميسرون للجارية : أسمعينا من غنائك الشجى ما يطرب له ضيوفنا الكرام، فأخذت عوداً

وحطته فى حجرها وغمزته بأناملها وغنت بصوت رخيم طرب له الحاضرون . ولما أقبل الظلام طلبوا المدينة وذهب كل إلى مرقده . وفى الصباح أراد الملك والليلمان أن يخرجوا بهم إلى الصيد فأقسم عنترة أنه لن يبيت فى هذه الأرض لأن قلبه احترق شوقاً إلى دياره وإلى عبلة . فاغتم الملك والليلمان لهذا القسم ، ومنحوهم خمراً وهدايا كثيرة ، وودعوهم وهم فى أسف شديد لفراقهم ، وكان الليلمان أشدهم جزعاً لفراق عنترة .

وما زال عنترة وجماعته سائرين حتى قربوا من ديار بنى عبس . فأمر عنترة أخاه شيبوباً أن يسبقهم حاملا إلى الديار بشرى عودتهم غانمين ، فخرج قيس فى موكب حافل ومعه أولاد عنترة وعمارة ، لاستقبالهم ، وما كان خروج عمارة إلا رياء ونفاقاً ، وما كانت عبارات التهنئة منه إلا كذباً وزوراً ، ولما دخلوا الديار تلقته عبلة فرحة مستبشرة ، فتلقاها بين ذراعيه وحنايا صدره ، وتشبثت أمه زبيبة بظهره قائلة : أقبلت على من تحبها ، ونسيت من حملتك فى بطنها ، واتخذت من صدرها مهادا ، ومن جسمها زادا ، فالتفت إليها ضاحكاً من قولها وقال : ما عنترة وعبلة إلا ملك يمينك يا أماه ؛ وأقام فى دياره ، وطابت له الأيام ، وصفت له الأوقات ، وأكثر من نحر الذبائح وإقامة الولائم على الغدران .

* * *

ولما قلت جماله التى أكثر الذبح منها أراد أن يمشى فى مناكب الأرض

للكسب والمغنم ، فأقسم الغضبان وأصر على أنه هو الذى يخرج هذه المرة ، فلم يبطل عنترة قسمه ولا عزمه ، وأخذ الغضبان إخوته غصوبا وميسرة وعشرة فرسان ؛ ولما كانوا فى بطن القفر وقفوا يتشاورون : أى أرض يقصدون ، فأشار الخذروف عليهم أن تكون أرض اليمن وجهتهم ، وجدّوا فى السير إليها ، حتى كانوا من اليمن فى أرض تدعى أرض العلم والقصر المطلسم ، وكان يحكم هذه الأرض رجل من الجبابرة يسمى الأهوج بن عربيد المتوج ، وفى قبضة يمينه عشرون ألف جبار ، وسميت الأرض بذلك لأنه كان فيها قصر عظيم ومنارة من الرخام يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة وخمسين ذراعاً ، وفى رأسها علم يخفق فى الهواء ، وفى رأس العلم لوح من الذهب معلق فى سلسلة فضية لامعة ، وليس فى مقدور إنسان أن يصعد فيها ، لأنها ملساء جرداء مرتفعة ، وقد كتب فى جدارها : هذا بناء الهدهاد بن بلغام ، الذى بنى الأهرام[1] ، وقد عاش ألف عام ، وتزوج ألف بنت ، أعقب منهن ألف ولد ليس فيهم أنثى ؛ فلما دنا أجله ، وأحس قربه ، قال : هأنذا ما نفعنى مال ولا ولد ، وكأن حياتى أضغاث أحلام ، وقد بنيت هذا القصر فى المدينة ، ورصدته وطلسمته ، وجعلت فيه ما أملكه من حطام الدنيا الفانية ، وأمرت قومى أن يضجعونى على سريرى بعد موتى ، ويقفلوا الباب علىّ ، ويذبحوا عنده عبدا وفيلا وأسدا تكون قربانا ورصدا ، يحول

(١) هذا زعم القصة والذين بنوا الأهرام هم الفراعنة .

بيني وبين الناس ، فلا يستطيع أحد أن يقرب جثتي ، ومن حاول ذلك قتله الرصد .

ولما كانوا فى هذه الأرض وقفوا يتشاورون فيما يفعلون ، فقال الخذروف أرى أن نبيت فى هذا المكان لنستريح ، وفى الصباح ، نغزو الرعاة ونسوق ما بين أيديهم من نوق وجمال ، فنزلوا كما أشار الخذروف فى مكان مخضر الجنبات ، وفى أشجار مورقة ، وأزهار يانعة ، وأنهار دافقة ، وطيور مغردة ، فاح عبيره ، وتمايلت أغصانه وأرخى النخيل ضفائره ، وانشق عن نضيد طلعه ، وأحمر ورده .

وفى الصباح انتشر الرعاة ودوابهم ، وامتلأت الأرض بهم ، فانقض الغضبان وجماعته عليهم وصاح الغضبان فيهم صيحة زلزلت لها صدورهم ، وبادر المقدم فيهم بضربة أطاحت رأسه ، وكان فارساً لا يطاق ، واسمه جابر ، وقال لهم : سوقوا أموالكم بين أيدينا ، وامشوا بها قدامنا ، فانصاعوا لأمره خوفاً ورعباً ووكل بهم خمسة من فرسانه ، وأمرهم أن يسبقوه حتى يلحق بهم ، وتخلف هو فى خمسة فرسان يقتلون من سولت لهم أنفسهم أن يتبعوا الرعاة والأموال ويردوهم ، فكانوا من ورائهم ولكنهم بعيدون عنهم . فلما أبعدوا فى المسير رأوا من خلفهم خيلا تركض بفرسانها ، يتقدمهم الأهوج بن عربيد المتوج ، وهو يصيح قائلا : يا أخس العرب ، وألأم من أغار وهرب ، لا مفر لكم من يدى وإن اعتصمتم بالسحب ، وكان قد أخبره بهذا الرعاة الهاربون — فقال الغضبان : اسكت ، خرس



عنترة يستقبل عبلة وأمه تعتب عليه أنه أهملها

لسانك ! وبطل سعيك ! أنا الذى أخذت أموالكم ، وسأستل بسيفى الآن أرواحكم . وحمل كل منهما على صاحبه، واشتد البلاء، وأطبق عليهما غبار كأنه قطع الظلام ، ثم صاح الغضبان صيحته ، وأتبعها بضربة من سيفه ، فطار رأس الأهوج عن جسمه ، ورأى ذلك جيشه فحملوا على الغضبان ومن معه مستبسلين ، ولما رأوا سيوفه تحصدهم ، وأنهم لم تغن عنهم كثرتهم ، ويئسوا من التغلب على الغضبان وصحبه لاذوا بالفرار هاربين ، ثم جد الغضبان وجماعته فى المسير حتى أدرك بقية رفقائه الخمسة ، فأخبروهم بما ظفروا من نصر عظيم ، ففرحوا وهنئوهم على سلامتهم ونصرهم وما زالوا سائرين مجدين ، حتى نزلوا فى واد قريب من ديار بنى عبس ، وباتوا فيه ، وكان كثير الأشجار والثمار والغدران . وفى الصباح أرادوا الرحيل ، ولكن جمال الوادى حبسهم ، فقعدوا فيه هذا النهار ينعمون بروضاته وغدرانه ، ويصيدون من وحشه وغزلانه . ثم رحلوا وساروا حتى وصلوا إلى الديار فاستقبلهم عنترة والأهل والعشيرة بالفرح العظيم ، وأقام عنترة وأولاده فى سلام ونعمة وهناءة ، وطاب إليه وإلى أولاده قبائل العرب من أصحاب المناهل والغدران أن يحموهم ويعطوهم الجزية كل عام .

* * *

لبث عنترة ثلاثة أعوام وهو يطعم الطعام ويقيم الولائم حتى اقترض من عبلة مائة ناقة ، وذات يوم قال لعروة : لم أعد أطيق الدّين بعد اليوم ،

فهيا للرحيل والسفر ومعنا رجالك وأولادى وشيبوب وابنه الخذروف ، فأجابه عروة إلى رغبته ، وباتوا ليلتهم ، وفى مشرق الشمس ركب عنترة وأولاده الغضبان وغصوب وميسرة ومازن ، وعروة ورجاله — وكانوا ثمانين — وشيبوب وابنه الخذروف ، وجعلوا يقطعون الفيافى طلبا للمغانم ، يوماً ونصف يوم حتى أضناهم التعب فلم يجدوا شيئاً فوقف شيبوب ودار بعينيه فى الفضاء وإذا هو يعلن لهم أنه ضل عن الطريق .

ضل شيبوب عن الطريق ووجد نفسه فى برية الأصنام ، وهى قفراء جرداء ، لا يسمع فيها غير زمجرة الجان ، فوقف متحيراً مضطرباً ، فقال له عنترة : لمَ لمْ تخرج بنا من هذه الأرض التى تجهلها إلى أرض غيرها تعرفها ؟ فقال شيبوب : إن خرجت منها وسرت إلى يمينى دخلنا فى أرض الذباب ، وبقربها وادى صاروخ ، الذى تسكنه الجان ، ولا يقربه إنسان فقال عنترة : سر يا شيبوب إلى يمينك واخرج بنا من هذه الأرض القاحلة ولا تخف من إنس ولا جان . فسار شيبوب إلى يمينه وعنترة يتبعه فى همة وقوة حتى كانوا بوادى صاروخ ، فلقيهم خمسة فرسان طوال الأجسام كأنهم من قوم عاد ، ذوو رءوس كبيرة ، وأحداق مشقوقة ، يزمجرون زمجرة الأسود ، لبسوا خوذهم ودروعهم ، وتقلدوا أسلحتهم ، وهم على خيول سود قد انشقت منهن المناخر والآذان . فقال عنترة لابنه غصوب : امض إلى هؤلاء الأشخاص الذين بدوا فى هيئاتهم الغريبة ، لتعرفهم من أية قبيلة ،

فأسرع الغضبان وركب جواده وسار إليهم وقال لهم ، من أنتم ؟ وإلى أية قبيلة تنسبون ؟ خير لكم أن تعجلوا بإلقاء أسلحتكم قبل أن أسقيكم كأس هلاككم ، فما أتم كلامه حتى انقض عليه فارس منهم ، فغرز الرمح فى صدره، ثم رفعه إلى الجو ورماه على الأرض جسداً لا روح فيه. أما عنترة فقد أغمى عليه من هول الصدمة التى أصابته فى سويداء قلبه . وأما عروة وبقية الفرسان فلم يجدوا مفراً من قتال هؤلاء وتمزيقهم ، فتلقاهم الفرسان الخمسة بطعنات ما رأوا مثلها ، وهم فى حرز من أن تصيبهم طعنة من أعدائهم فكانوا يحصدونهم حصداً ، وقتل جوادان لعروة ، أحدهما بعد الآخر ، وعنترة لا يزال غارقاً فى إغمائه. على الرغم من تنبيه عروة له أكثر من مرة ، ولما وجد عروة أن الثمانين فارساً قد فنوا وهلكوا إلا عشرين منهم أقبل على عنترة فزعاً ، وصاح بأعلى صوته فى أذنه قائلا : أفق يا حامية عبس ، فقد خسرت أبناءك ورفقتك . ففتح عينيه عن حمرة كأنها دم ، وقال : يا أبا الأبيض ، هل تعرف قاتل ابنى ؟ دلنى عليه حتى أستل روحه من بين جنبيه ، فقال : انظر إلى القتلى من رجالنا ، وهؤلاء الخمسة ما قتل منهم أحد ، وأولهم هذا هو قاتل ابنك الغضبان . فنهض عنترة إليهم وطعن أولهم بالرمح فى صدره فانكسر الرمح ولم يصب الفارس ، فضربه بسيفه فانثنى السيف ولم يصب الفارس . فارتد بجواده وقال لعروة : يابن عمى ، النجاة ! النجاة ! فما هذا يوم قتال ، فقال : لقد أصبحت بغير

جواد ، فمد يده وأردفه خلفه ، وسار عنترة ، وعروة ، وغصوب ، وميسرة ومازن ، إلى الديار ، أما شيبوب والخذروف ، فإنهما ساعة قتل الغضبان ركبا متن الريح إلى بنى عبس وقال : قتل عنترة وجميع من معه . فانطلقت صيحات البكاء فى كل مكان ، ولطمت الوجوه ، وشقت الجيوب ، وهدمت البيوت ، وتحولت الأحياء إلى مناحات باكية لاطمة صارخة . وجزع الملك قيس أشد الجزع ، وبكى الفرسان مر البكاء . أما عمارة فقد أظهر حزناً كاذباً ، وأخفى فى صدره ، فرحاً طابت به نفسه .

أقبل عنترة وعروة والأبناء ما عدا الغضبان ، فوجد الديار قد كساها الحزن ثياباً سوداء ، وهى تتجاوب بأنات الأسى وأصوات البكاء ، فتلقاهم الرجال باكين والنساء باكيات ، وخفف من آلامهم أن رأوا عنترة وأبناءه وعروة ، وإن كان موت الغضبان لا يزال يحز فى نفوسهم . وقالت عبلة : يا عنترة : حياتك أنت ذخر لنا ، وما دمت حياً فلا تخشى شقاء ولا ضيما وأنت تعلم أن الآجال معلومة ، وما نقص من مات من عمره شيئاً ، ونحمد الله على سلامتك أنت وعافيتك ، وجاءه الملك قيس فهنأه بسلامته وعزاه فى الغضبان ابنه ، ثم توجه إلى مضربه ، وحبس فيه نفسه . وأضرب عن الركوب ، وحلق الشعر ، وحضور الأعياد ، وشرب الخمر . وخلع ثياب الحداد ، حتى يعرف قاتل ابنه الغضبان ، ويقتله فيه . وعكف فى بيته على هذه الحال شهرين كاملين ، وسماه بيت الأحزان . وبلغ أصحابه نبأ

قتل ابنه الغضبان فوفدوا إليه من كل صوب يعزونه ، وكان منهم دريد بن الصمة . وعامر بن الطفيل ، وزيد الخيل ، وعمرو بن معد يكرب ، وحجار بن عامر ، وروضة بن منيع ، والملك عباد ، والملك نعمة بن الأشتر ، وحصن المازنى ، والعباس بن مرداس ، وحاتم الطائى ، وخفاف ابن ندبة ، وهانئ بن مسعود ، وعتبة بن شهاب وهؤلاء جميعاً من سادات العرب ، ورؤساء العشائر ، وما استطاع هؤلاء أن يخرجوه من بيت الأحزان وبعد واحد وستين يوماً قال دريد بن الصمة للملك قيس : إن تركنا عنترة فى بيته على حالته هذه هلك ، فدبر لنا أمراً يبدل من حالته ، ويخرجه من بيته ، فأطرق قليلا ، ثم قام إلى مضربه وأحضر عبلة وقال لها : يا عبلة ، إن ابن عمك قد انقطع عن الناس فى بيت أحزانه ، وعلم الحساد بذلك فشمتوا بنا ، وأصبحنا مطمعاً لهم ، واستعصى علينا جميعاً إخراجه من بيته ، وقد انقطعت سبلنا إلا سبيلك ، وضاعت آمالنا إلا أملنا فيك ، فعليك أن تحتالى لخروجه ، وفك هذا الحصار عن نفسه ، فإننا إن تركناه على هذه الحالة هلك ، وهذا لا يرضيك ، فقالت : سمعاً وطاعة . وقامت من فورها إليه ، وقبلت رأسه وقالت له : ألم يأن لك أن تترك هذه الأحزان ، التى لا يليق دوامها بالأبطال ؟ ! لقد أشمت بنا حسادك ، وأفرحت أعداءك ، وكبت أحباءك وأصدقاءك ، وما كنت إلا فرجاً للصديق ، وهمًّا لكل عدو وحاسد ، وقد هجر أكابر العرب أوطانهم وأقاموا عندنا من أجلك ،

وجميعهم مشفقون عليك . فقال : هل نفد ما عندك من المال ؟ فقالت حاش لله أن ينفد لك زاد ، فقال : قومى واذبحى لهم وأكرميهم ، فإنى لن أفارق مكانى هذا ، فقالت : ما دمت مصراً على رأيك ، ولم تسمع لى نصيحة ولا قولا ، فقم وارددنى إلى أهلى ، فقد أبطلت وجودى معك ، ورأيى فى خيرك وصلاحك . فانتفض عنترة قائماً ، وخرج من بيت أحزانه فتلقاه الملك قيس وأكابر العرب وعزوه ، فقال : إن فى قلبى جمرة لا تخمد إلا إن قتلت من قتل ابنى ، فقال الملك : عرفنا يا عنترة من قتل ابنك ، ونحن جميعاً نسير إليه ولا نعود إليك إلا برأسه ، فقال عنترة : قد تكون أعرف منى به ، فقال الملك : لا أعلم إلا أن خمسة من الفرسان قتلوا ابنك ، ولا نعلم لهم مكاناً ، فقال عنترة : إنى سائر لآخذ بثأر ابنى ، وأنت حر فيما ترى ، وقد عزمت على أن أركب جوادى ، وأقتل جميع العرب بسيفى ، ليقتل فى جملتهم قاتل ابنى ، فثار العرب وماجوا وخافوا على أنفسهم أن يصر عنترة على رأيه هذا ، فقال دريد : اصبروا ولا تعجلوا فهو الآن فى ثورة حادة سلبته رشده ، وأفسدت عليه صواب رأيه ، ولا بد أن تزول ثورته ، ويرجع إليه طبعه وسجيته ، ويئوب غائب رشده وعقله ، فأجيبوه لكل ما يقول ، فذلك سبيل الهدوء الذى ننشده فيه ، فقالوا : يا عنترة نحن معك ، وأرواحنا فى يمينك ، فاطلب بنا وبسيوفنا من تشاء ، وإن كان كسرى أنو شروان ، فقال عنترة : إن كنتم صادقين فيما تقولون

فاركبوا خيولكم وخذوا أسلحتكم وسيروا معى ، فركب جميعهم وكانوا سبعين ألفاً ، وترك بنو عبس مع الأمير ورقة والربيع ألف فارس لحماية الديار وتقدم شيبوب أخاه عنترة وقال له : إلى أى أرض تريد أن تتوجه وتبدأ بأهلها ؟ فقال : إلى بر الحجاز ، ثم أعلى النسر السماك ، ثم مطلع الفرقدين ، ثم بلاد اليمن ، ثم إلى سواحل البحار ، ثم بنات نعش ، ثم بقية أرض الحجاز ، فلعل قاتل ولدى يقتل فيمن يقتل من هؤلاء ، فلما سمع الملك قيس كلام عنترة لأخيه قال لدريد : ماذا نفعل الآن ، وقد سمعت ما قاله لأخيه ؟! فقال دريد : كما دبرت حيلة أخرجته بها من بيت أحزانه فدبر حيلة أخرى تخرجه من رأيه ، أو تقينا شره وضره ، فقال : خطر ببالى الآن رأى ينجو به العرب من سيف عنترة ، فقال وما هو ؟ قال : أن تخبرنى باسم كل قبيلة نحن قادمون إليها قبل أن نصل ، وأنا أكتب إليها كتاباً أقول فيه : بعد قراءة كتابى هذا اخرجوا ومعكم نساؤكم وجميعكم لابسون ثياب الحداد السود ، وسيوفكم معلقة فى رقابكم وأنتم مشاة حفاة فإذا رأيتمونا قادمين إليكم فقابلوا عنترة وهو معنا بالبكاء وعزوه فى ابنه الغضبان ، واعتذروا له بأنكم ما علمتم إلا هذا اليوم . وما طلبت منكم ذلك إلا خوفاً على النساء ! والأطفال لأن عنترة معه سبعون ألفا ، فإذا رأى ذلك عنترة وأراد أن يؤذى القبيلة نتعاون فى أفهامه أنه لا يليق بك أن

تؤذى قبيلة تواسيك وتحزن لحزنك. ولو كان منها القاتل ما فعلت ذلك أبداً ، وحينئذ يتركها ، وهكذا حتى ينتهى من جولته ، ونكون بذلك قد نجينا العرب من سيفه . فقال : حسناً رأيت ، وما كان أحد منا بقادر على أن يفكر كتفكيرك ويدبر كتدبيرك . فمر بالقبيلة الأولى فوجدها قيس فعلت كما أمر فى كتابه لها ، وتقدم دريد وكبار العرب وقالوا لعنترة : لو كان منها القاتل ما رأيتها على هذه الحال ، فقال عنترة لعبيد القبيلة : هاتوا الخيل والأسلحة لفرسانكم ، وردوا نساءكم وبناتكم إلى خدورهن ، واركبوا خيلكم وسيروا معى ففعلت القبيلة ما أمر عنترة ، ومر بالقبائل حتى كمل معه خمسمائة قبيلة .

وسار عنترة بهذه القبائل حتى كان فى بنى كندة فلقيه أميرها وسلم عليه وقال : أهنئك بما رأيت من حظ سعيد ، وميزة عظيمة لم يصل إليها أحد ، تلك الميزة طاعة العرب لك والتفافهم من حولك ، وسماعهم لأمرك ونهيك ، ولكن ما الذى دعاك إلى أن تفعل هذا ؟ ! قال عنترة : أبحث عن قاتل ابنى ، فقال الأمير : إن أردت ذلك فاترك ما أنت فيه ، وتعال معى إلى قس بن ساعدة الأيادى ، كاهن هذا الزمان وسيخبرك عن قاتل ابنك الغضبان ، فسار عنترة هو والعرب جميعهم إلى قس بن ساعدة وكان الله قد منحه الفصاحة وسعة الجاه ، وجعل له مزايا خاصة به ، منها أن السباع تقبل يديه ورجليه ، ويعرف الحوادث ، ويكشف عن الخبىء ، فلما

دخل عليه عنترة سلم عليه فأكرم مجلسه ، ثم سأله عما جاء به ، فشرح له حادثة قتل الغضبان ومن معه من الفرسان ، فقال له قس بن ساعدة : اعلم ياعنترة أن الجان هم الذين قتلوا ابنك ، فلا تخاطر بنفسك بعد ذلك فتدخل أرضاً أنت لا تعرفها ،

* * *

رجع عنترة من عند قس بن ساعدة ، واستقر فى داره ، والوجوم لا يفارقه ، لفقد ابنه ، الذى لا تزال ناره تتأجج فى صدره ، وبينما هو جالس ذات يوم أمام خيمته ، ومن حوله أولاده ، وأقاربه ، وفرسانه ، وعروة ، وهم يسلونه ، ويخففون أوجاعه ، جاءهم شيبوب ومعه عبد من بنى نبهان .

وكان هذا العبد سائراً إلى شأن من شئونه ، فأدركه المساء ونزل فى مضارب شيبوب فأكرمه وجلس يؤنسه بالحديث معه ، فقال له : يابن الخالة ، من أين أنت ؟ فقال : أنا من بنى نبهان . فسأله عن الأمير زيد الخيل ، وعن بنى نبهان وفرسانها ، فحدثه عن وزر بن جابر حديثاً مسهباً مفصلا ، وعن كبشه الذى فرض له على العرب جزية ، ومن امتنع عن إعطائها أهلكه ، وأنه بذلك أصبح أغنى من فى الأرض من البشر ، وأقوى من فى العرب من الفرسان والأبطال ، فعجب شيبوب وأسف ، وأخذ العبد وسار به إلى أخيه ، ولما وصل به إلى الخيام تركه مكانه وقال : انتظرنى هنا

حتى أعود إليك ، لتصحبنى إلى أخى .

دخل شيبوب إلى عنترة وهو جالس أمام خيمته فى طائفة من أولاده وأهله وصحبه ، وقد أغرق فى الضحك وأغرق ، فقال عنترة : ويحك يا أبا رباح ! لقد أغرقت فى الضحك والانشراح ، فقال : إن شر البلية ما يضحك ، وقد بلينا بداهية الدواهى ، فكيف لا أضحك ، ثم أغرق فى الضحك ، فانتبه عنترة وقال : حدثنى يابن أمى بما عندك ، فحدثه عن وزر بن جابر حديث الكبش الذى فرض له على العرب إتاوة ، ثم قال : لا يعز عليك شىء من هذا يابن الأم ولا يهمك ، لأنك أصبحت من العجزة الذين لا يدرون شيئاً عن الحرب والطعن والضرب ، فانتبه عنترة انتباهاً أقوى وأشد وقال : كيف تقول هذا يا شيبوب ؟ فقال : ما قلت إلا حقاً ، ولو كنت أنت عنترة ما تركت واحداً كالأسد الرهيص — وزر ابن جابر — يسوم العرب ظلماً ، ويعتدى على بنى قحطان ، وبنى عدنان ، لو كنت أنت عنترة ما تركت مثل هذا الظالم يعيش آمناً فى أرغد معيشة وأوسع نعمة ، واشتغلت بموت الغضبان ، ناسياً ومضيعا ما بنيت من المآثر فى هذا الزمان ، فخمدت فيه جذوة الحزن وقال : ائتنى بهذا العبد حتى أسمع منه ، فخرج شيبوب إلى العبد فى المكان الذى ينتظره فيه وجاء به إلى عنترة ، فسأله عنترة عن الخبر فحكى له كل شىء عن وزر بن جابر ثم قال : يا أبا الفوارس : إنه ضيق لا نعرف له فرجا ، وكربة لا ندرى لها

متنفساً ، ونقمة لا نرى لها فى العرب كاشفاً ، فغضب عنترة وانتفض قائماً وقال : على رسلك يا رجل ! لقد أفرطت فى اليأس وبالغت فى التشاؤم ، وسأريكم أن فى العرب عنترة بن شداد ، لا تقر له عين وفيهم مظلوم يئن من ظالمه ، وأنت فى ضيافتى الليلة ، ثم دخل على عبلة فرآها مطرقة حزينة فتأثر من هذه الجلسة التى لم يعرف لها سبباً وقال : ماذا شغلك عن الفرح والمرح يا عبلة ؟ ! لقد قهرت ملوك الشرق والغرب ، وأحضرت لك تاج كسرى ، ومال قيصر ، وعلقت قصيدتى على البيت الحرام ، وكنت حاميا لبنى عبس وذبيان ، وبعد هذا كله ، فأنا لك ، وأنا فى خير وعافية ، فماذا شغلك عن الفرح والمرح وأنت مناط الغبطة فى نفوس العرب أجمعين ؟ فقالت عبلة : أتعى ما تقول وتذكره ؟ ! فقال عنترة : نعم ! وما قلت إلا الحق ، واسألى عنه من تشائين ، إن كنت تتجاهلين ، فقالت : أعرف ذلك ولا أتجاهله ، ولكن أين أنت منه الآن ؟ لقد جبنت وضعفت وانزويت ، وطويت صحيفة حياتك المجيدة ، وبدأت بانزوائك حياة ميتة لا تليق بالأبطال : وإنه لا يشرفنى أن يكون زوجى ضعيفاً جباناً ، ذليلا مهاناً ، وهذا كبش الأسد الرهيص أشجع منك وأكثر نفعاً ، إذ أن له جزية مفروضة على العرب كبيرهم وصغيرهم ، وقد عيرنى بك الحساد ، وشمت فىّ الرفيع والوضيع ، وما بقى لى عندك حاجة . وكفى ما أنا فيه من الوضاعة والحقارة. فقال عنترة : أهذا ما أحزنك يا عبلة ؟ فقالت : وكيف

لا يحزننى ، وهذا الأسد الرهيص جعل له كبشاً ، يعطى زوجته جزيته وأنا زوجة أبى الفوارس عنترة ليس لى كلب ينبح على باب بيتى ؟ ! فقال عنترة : اعلمى يا عبلة أن البغى مرتعه وخيم ، ولا بد أن يصرع صاحبه ، وقد علمت أن الأسد الرهيص طغى وبغى ، وسيلقى مصرع بغيه وطغيانه ، فقالت عبلة : إن لم تطعمنى من لحم هذا الكبش ، وإن لم تأت الحى بالأسد الرهيص أسيراً مهاناً ، فلن أكون لك أهلا ، ولا أرضى بك بعلا ، فقال عنترة : لقد فهمت الغاية من قولك ، وما أردت إلا أن أزيدك فخراً على فخر ، وعزة فوق عزة ، فقالت ما أردت إلا ذلك ، فقال عنترة : ولن يكون إلا ما أردت ، فطيبى نفساً ، وقرى عيناً ! ثم تركها ومضى إلى الملك قيس بن زهير . ولكن من نقل إلى عبلة أخبار الأسد الرهيص ؟ وحرضها على أن تقف من عنترة موقفها هذا ؟

٤

لم يسكت الربيع بن زياد عن الكيد لعنترة ، فلما وجده قد علق قصيدته على البيت الحرام اضطربت فى صدره نار الحقد والحسد والكراهية والغم الأليم فقال لابنته : أفى مقدورك أن تعاونينى على هلاك عنترة بكلمة واحدة ؟ فقالت : وما تلك الكلمة يا أبى ؟ فقال : تجلسين إلى عبلة ،

وتثنين على عنترة ، وتذكرين ما امتاز به من كثرة المال والرجال والشجاعة والبطولة ، وأنه ما نال أحد حظاً من العزة والسعادة مثل الذى نال ابن عمنا عنترة ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يبلغ منزلة الأسد الرهيص ، الذى اتخذ له كبشاً وفرض له جزية على العرب يؤدونها له ، ومن امتنع عن أدائها قتله . فقالت له : سمعا وطاعة ، ثم نهضت لساعتها وذهبت إلى عبلة وجلست إليها ، وأفضت إليها بما قاله أبوها الربيع بن زياد ، فغاظ عبلة ما سمعت ، وملكها الغم والهم حتى جاءها عنترة وكان بينهما ما قرأت من الحديث .

كان عنترة قد ترك عبلة وذهب إلى الملك قيس بن زهير ، وألقى فى سمعه كل شىء عرفه عن الأسد الرهيص ، فقال الملك : وهذا يا عنترة ما ضرنا منه شىء ، والأسد الرهيص هذا لا صلة بيننا وبينه ، ولا هو منا ، ولا نحن منه ، وإن طلب منا جزية أرقنا دمه ، وجعلناه طعاماً للوحوش ، والرأى عندى ألا نسأل عنه ، ولا نهتم به ، ولا نتعرض له ، فقال عنترة : والله لن أقعد عنه أبدا ، ولا بد أن آكل من لحم هذا الكبش رغم أنف صاحبه ، ولا بد من نهب ماله ، وسبى حريمه وعياله . وفهم الملك قيس أنه مصر على رأيه فقال : أنت وما تشاء يا عنترة .

رجع عنترة إلى عبلة وأخبرها ما دار من الحديث بينه وبين الملك ثم قال : أخشى أن آتيك برأس الكبش ولحمه ، فيخامرك الشك فيهما ،

وربما ظننت أنهما من الغنم السارحة فى القيعان ، ولهذا كان من المحتوم أن تسيرى معى ، لترى بعينيك ما سأفعله ، وسأعلق رأس هذا الكبش فى عنق الجمل الذى يحمل هودجاك ، وإن تصدى لى صاحبه أو طلبنى بعد أخذه أسرته وأوثقته بالأغلال والقيود ، وقلبته على مهاد الذلة والمهانة . فقالت : ذلك مبلغ أمنيتى ، ومحط آمالى ، لا أغمد لك سيف ، ووقاك الله كل شر وحيف .

وطلب الملك قيس ذات يوم إخوته ، وبعضاً من أقاربه وجنده ، لأنه عزم على الخروج للصيد والقنص ، وطلب عنترة ليصاحبه فلم يجده ، فسأل عمه مالك عنه ، فقال : أصبحنا فلم نجد له ، ولا لأخيه شيبوب ، ولا لابنتى عبلة ، فى الأحياء خبرا ، ولا يدرى أحد منا أين مضوا وذهبوا . فعجب الملك وبنو عبس من أنهم خرجوا وليس معهم أحد .

أخذ عنترة وشيبوب عبلة فى هودجها وساروا ، وأراد أولاده أن يصحبوه فأبى عليهم ذلك ، وما زالوا سائرين حتى قربوا من ديار بنى نبهان ، فكمنوا فى الوديان ، وبعث أخاه شيبوباً ليتعرف الحال ، فلما أشرف على حلة زيد الخيل لقيه عبد من عبيده ، فسأله عن وزر بن جابر وكبشه ، فقال أما وزر فلا أعرف أين هو الآن ، وأما كبشه ففى مغارة فى هذا الجبل — وأشار إليه — فى حراسة العبيد الذين يخدمونه ، ثم رجع شيبوب إلى أخيه ، وحدثه بما سمع من هذا العبد ، فقال عنترة : امض بنا إلى المغارة . فلما

وصل إليها وجدها فسيحة الأرجاء ، ووجد القناديل مضاءة فيها ليلاونهاراً ، ووجد العبيد جالسين أمام بابها ، ولما رأوا عنترة قالوا له : انزل يا وجه العرب عن جوادك ، وقبل الأرض أمام حارس العرب ، فاستل عنترة سيفه ، وضرب المتكلم منهم فأطاح رأسه ، وهجم على بقيتهم فقتل من قتل ، وهرب من هرب منهم إلى الأحياء يصيحون : قتل حارسنا ! ومات كبشنا ! وأخذ عنترة الكبش واتجه به نحو الحلة ، وكان أكثر أهلها مع الأسد الرهيص وزيد الخيل فى غزوة من الغزوات ، وكان عنترة قد أمر أخاه شيبوبا أن ينزل عن الكبش التاج والأساور ، والخلاخيل ، والقلائد ، ويضعها فى مخلاة فرسه الأبجر .

وخرج إلى لقاء عنترة ثلاثمائة فارس يصدونه عن حى بنى نبهان ، فأعمل فيهم سيفه حتى استسلموا وقالوا : ما حاجتك يا حامية بنى عبس ؟ أخبرنا بها لنعجل لك بقضائها ، فقال : حاجتى وزر بن جابر لأسوقه أسيراً مهاناً ، أو أقتله وأذبح كبشه الذى فرض له الجزية على العرب ، فقالوا : أما وزر فهو غائب فى غزوة من غزواته ، وأما كبشه فهو فى مغارته من ذلك الجبل ، فقال : أما الكبش فقد أخذته ، وأريد أن أسير به لأنحره فى بيته ، فقالوا : ها هو ذا بيته أمامك — وأشاروا إليه — فسار عنترة وشيبوب وعبلة إليه ، فجلست عبلة فى مكان الأسد الرهيص ، وأمر عنترة شيبوبا أن يذبح الكبش على حافة سريره ، ثم يقسمه إلى نصفين ،

ويملح نصفاً ويترك الآخر ، ثم أمر ريحانة زوجة الأسد الرهيص أن تنضج لعبلة شيئاً من لحم النصف الذى لم يملح ، لتأكله ، وأن تقف بجوارها لخدمتها حتى تأكل ، وأن تصب على يديها لتغسلها بعد الأكل ، ففعلت ريحانة ما أمرها به عنترة ، ثم أمر شيبوبا أن يسوق من مال الأسد الرهيص ألف ناقة ، وأن يسبي زوجته ريحانة ، وبعد أن تم له ما أمر به ، وركبوا وساروا فى طريقهم إلى ديار بنى عبس ، فقالت ريحانة : أتسبينى يا أبا الفوارس ، وأنا أخت صديقك عمرو بن معديكرب الزبيدى ؟ ! فقال : ومن أجل أخيك يا ريحانة ، عليك منى السلامة ، وقد وهبت لك جميع أموال زوجك الأسد الرهيص ، واعلمى يا ريحانة أنه لو كانت زوجته غيرك لسقتها ماشية حافية قدام عبلة ، وبلغى زوجك إذا رجع إليك أنه إن عاد إلى اتخاذ كبش آخر ذبحته بين يديه رغم أنفه ، ثم ودعوها وساروا إلى ديار بنى عبس .

* * *

ولما وصلوا إلى مرج على شاطئ القرن ، فنزلوا فيه ، لكثرة أشجاره ، وطيب هوائه ، وغزارة مائه ، وضربوا فيه قبة ، نزلت فيها عبلة ، واضطجع فى داخلها عنترة ، واضطجع شيبوب أيضاً ليستريح من تعبه ، وجلست عبلة ، تجول بعينيها فيما أمامها من الأشجار والمياه ، والبرارى والقفار ، فلاح لها من بعد شخص مقبل نحوها من البرية ، فخافت أن ينالها منه

مكروه وصاحت : يا عنترة ، فاستيقظ قائلا : ما شأنك ؟ كفانا الله شر صوتك ! فقالت : أرى فارساً على جواد أشهب ، وقدامه شيء يلمع كأنه الكوكب ، وهو مقبل إلينا ، فقال : لا تخافى ، فهذا فارس اليمن ، الأصهب بن شرحبيل ، فقالت : إنه متجه نحونا ، وهو لا بد آت إلينا ، فقال : لا تفزعى ، فلو كنت نائماً وعرفنى ما جرؤ على أن يوقظنى ، ولكن الأصهب استمر فى طريقه إليهم حتى كان عندهم ، وما عرف أن النائم عنترة ، فصاح به صيحة عالية ، فلم يعبأ به عنترة ، فصاح مرة ثانية قائلا : اترك الظعينة وانج بنفسك ، وإلا قتلتك ، فما أجابه عنترة ولا التفت إليه ، فصاح مرة ثالثة قائلا : قم أيها النائم ، واركب جوادك ، وتقلد عدة قتالك ، وبارزنى ، وإلا فسلم نفسك ، فنهض عنترة غاضباً ، وركب جواده ، وهز رمحه فى يده ، وقال : ويل لك يابن شرحبيل ! وهل مثلى يترك الظعينة ؟ ! فلما عرفه هوى من ظهر جواده ، وانحنى على رجل عنترة فقبلها فى ركابها ، وقال : نعمت صباحاً يا حامية بنى عبس وعدنان وفزارة وذبيان ، فقال : ونعم صباحك ، ما تريد ؟ وما أتى بك إلى هذه القفار ؟ فقال : خرجت فى طلب الكسب ، وما زلت سائراً حتى رأيت قبتكم المضروبة ، فحسبتكم غنيمة ، فجئت لأغنمها ، وما علمت أن دونها الموت الأحمر : فابتسم عنترة ، ثم قال الأصهب : لو علمت أنك فى هذا المكان رسلت إليك الجزور والخيام ، فائذن لى أن أعود إلى الديار

وأرجع إليك بها وبكل ما تطلبه ، فقال : جزاك الله خيراً ! فركب الأصهب جواده ، ومضى إلى سبيله ، ولما أبعد قال عنترة لعبلة : كيف وجدتنى ؟ ! ألم أقل لك إنه لو رآنى نائماً ما جرؤ على أن يوقظنى ، ولو عرف أننى هنا مقيم ما أقبل بجواده إلينا ؟ !

٥

ولما رجع الأسد الرهيص إلى داره من غزوة بنى همدان ، فرحاً بنصرة قومه على يديه ، أقبل إليه العبيد مسرعين ، وهم يصيحون قائلين : واذلاه ! ! واحارساه ! ! فأزعجه هذا وسأل عما جرى ، فقالوا : غزانا فارس بنى عبس وحاميها عنترة ، وليس معه إلا أخوه شيبوب ، ثم حكوا له كل شيء فعله ، وقالوا : فخذ بثأرنا ، واكشف عنا خزى هذه الهزيمة الشنعاء ، فغضب وزر بن جابر وقال : ومن يصبر على هذا الجرم الكبير؟ وسأدركه أينما سار ، ولن أكون وزر بن جابر حتى أجرعه كأس البوار ، ثم جرّه الغيظ إلى قتل عشرين من العبيد المكلفين حراسة الكبش ، ولكنه رجع وندم على قتلهم ، لأنه وجد فى ذلك إضعافاً لقوته ، إذ كانوا من الفرسان الأشداء .

وكان وزر منذ نشأته فارساً يسمع أن زيد الخيل أسره عنترة ، فكان لا يفتأ يعيره ، فلما وقع به ما وقع ، قال زيد الخيل له : أرأيت يا وزر أن الدهر قلب ، والأيام دول ، فيوم لك ويوم عليك ؟ ! فإن كنت كما زعمت فارساً لا يشق له غبار ، فاذهب إليه وحدك ، وخذ معك زوجتك ، وافعل به ما فعل بك ، فأوجعه ما سمع ، وركب جواده وأركب زوجته جملا وجعل زمامه فى يد نجم عبده ، وطلب القفار ، مقتفياً آثار عنترة ، وأبى أن يخرج أحد من فرسانه معه. وقال : من تبعنى قطعت رأسه ، وأسرع فى سيره ، فى نشاط وهمة ، حتى أدرك عنترة ، وكان عنترة قد رأى من خلفه غباراً ، فقال لأخيه : قف يا شيبوب حتى نتبين أمر هذا الغبار . ثم انكشف عن فارس متقلد سلاحه ، وهو يقول : إلى أين تفرون ومن خلفكم وزر بن جابر ؟ وأنت يا عبد السوء ، ما حملك على أن تفعل فى بيتى وكبشى ما فعلته فى غيبتى ؟ ! فقال عنترة : حملنى على ذلك شجاعتى ، وإنكارى عليك تجبرك وظلمك ، واحتقارى لافتخارك بشىء ما سبقك إليه أحد . ثم اشتبكا وتبارزا ، وكانت معركة عجيبة ، أبلى فيها الفارسان بلاء جميلا ، واستمرت إلى الظهيرة ، فأرهقتهما وأتعبتهما ، وطلب وزر من عنترة تأجيلها للراحة ، فأبى وأصر ألا تقف حركتها حتى يفصل السيف بينهما ، كل هذا وعبلة ناظرة إليهما ، فنفد صبرها وقالت : يا عنترة ، ما هذا التلكؤ والتهاون ، لمَ لم تمسك خصمك بيدك وترفعه من فوق جواده ،

ثم تضرب الأرض ضربة تدق بها عظامه ، فأثار هذا القول حميته وانقض عليه. فأمسكه وألقاه على الأرض فاقداً قوته ونشاطه ، فأسرع شيبوب إليه وأوثقه . والتفت إلى ريحانة قائلا : أما أنت يا ريحانة فارجعى إلى دارك آمنة سالمة ، إكراماً لأخيك وصديقى عمرو بن معديكرب . فشكرت له جميل وفائه ، وأمسك العبد نجم زمام ناقتها ورجع بها ، فقالت لنجم عبد زوجها : اعلم يا نجم أن العار أوجع فى نفس الحرة من النار ، وقديماً قالوا : النار ولا العار ، ولا أطيق إن رجعت بيت زوجى تعيير الحساد وشماتتهم ، فاذهب بنا إلى دار أبى ، لعلى أجد له شفاعة عند صديقه عنترة ، فيعتق زوجى من رقه وأسره ، فاستجاب لأمرها ، ومضى بها إلى ديار أبيها .

* * *

أما الأسد الرهيص فقد سيق إلى ديار بنى عبس ذليلا مهاناً ، وأراد عنترة أن يقتله فى الطريق فبكى وتوسل إليه ألا يعجل به ، فقال عنترة : ولن أقتلك حتى أدخل بك الديار وأنت فى هذه المهانة. ومضى يطوى الأرض حتى وصل إلى بنى عبس ، فماج الحى بمن فيه فرحاً ، وخفوا لاستقباله وتهنئته وفيهم الملك قيس وإخوته . أما الربيع بن زياد وأخوه عمارة فقد كادا يصعقان من الحزن لعودة عنترة سالما فائزاً . فسأله الملك قيس : ما هذا الرأس المعلق فى رقبة البعير ؟ ! ومن هذا الأسير ؟ فقال : أما الأسير فهو وزر بن جابر الملقب بالأسد الرهيص ، فارس بنى نبهان . وأما هذا

الرأس فهو رأس كبشه الذى فرض له جزية على العرب ، وحمى أداءها بسيفه ، فقال الملك : إنك يا عنترة جدير أن تدعى حامية بنى عبس وعدنان ، ولقد كنت بذلك حامياً للعرب جميعهم ، فلا رأيناك إلا عزيزاً سعيداً ، ووقانا الله بك كل مكروه . ثم أنزل عبلة من هودجها ودخلت بيتها ،وحبس وزراً فى بيته مقيداً مغلولاً مثبتاً فى الأرض بأوتاد من حديد، ووكل إلى شيبوب أمر تعذيبه . وأتى إلى عبلة نساء الحى فهنأنها وأثنين على عنترة الذى رفع من شأنهن وشأنها وشأن القبيلة جميعها .

وفى الصباح ذهب عنترة إلى مجلس الملك قيس وجعلوا يتحدثون فيما فعله عنترة بوزر بن جابر ، وكان الربيع بن زياد وأخوه عمارة حاضرين . ولما فصل عنترة القصة تفصيلا ، أراد الربيع أن يهزأ به ويجبهه فقال : وأين نصيبنا من لحم الكبش يابن شداد ؟ فنادى عنترة : يا شيبوب ، هات ما عندك ، فأحضر اللحم المملح أمامهم ، فقال عمارة : وما يدرينا ، قد يكون هذا الرأس وهذا اللحم لكبش من الكباش السارحة فى المراعى ! فقال عنترة : لو كنت أنت لفعلت هذا ، لأنك عتل جبان ، وكذاب أشر ، لا مروءة عندك ، ولا وفاء لك ، ثم نادى : يا شيبوب ، أحضر مخلاة الأبجر ، فأحضرها لساعته ، فقال : أفرغ ما فيها بين يدى الملك وسادات العرب ، فأفرغه فإذا هو تاج الكبش وأساوره وخلاخيله ويواقيته وجواهره ، التى كانت على رأسه وفى أرجله ورقبته ، فعجبوا وبهت عمارة

ولكنه استمر فى وقاحته وقال : الويل لكم يا بنى عبس إذا قاتلكم بنو نبهان وفيهم الأسد الرهيص ، فقال عنترة : اسكت يا جبان ، إن الأسد الرهيص الذى تخشى سطوته أسير فى قيوده وأغلاله بمضربى ، ثم نهض عنترة غاضباً وخرج من المجلس وذهب إلى عبلة ، وحدثها بما سمع من عمارة ، وبعد هذا أقام عنترة الولائم فطعم منها الصغير والكبير والقريب والبعيد ، وهو مطمئن ثابت الجنان لا يفكر فى طوارق الزمان .

* * *

مضى نجم بريحانة إلى دار أخيها عمرو بن معديكرب ، فحكت له ما جرى من عنترة لزوجها ، وما فعله من المعروف بها ، إذ عفا عنها ولم يمسسها بضر ولا أذى وأخبرته أنه قال : وهبتك لأخيك عمرو لما بينى وبينه من الود والصداقة ، فقال أخوها : وكنت فى عز أو مهانة ؟ فقالت ما كنت عند عنترة إلا عزيزة مكرمة ، ولكنى أقول لك الحق : إن عنترة ما ظلم زوجى وزر بن جابر ، ولا جار عليه واعتدى ، ولكنه رحم العرب ورفع عنهم ظلماً فرضه عليهم زوجى وزر ، فقد فعل بهم ما لم يفعله أحد قبله ، وحكت له قصة الكبش وجزيته . فقال : بلغنى هذا يا ريحانة ، وهذا فعل لا يرضى به أحد ، فقالت : وقد جئتك أستشفع بك لدى عنترة ليفكه من أسره ، فسر بى إليه ، فذلك ما لا بد منه ، فقال أخوها : والله إن زوجك ليستحق القتل وأكثر ،ولقد ظلم الناس بكبشه ، وإن عنترة

صديقى فلا أرفع سلاحاً فى وجهه، بسبب زوجاك، ولا أنسى أنى مدين له بحياتى، لأنه خلصنى من سليك بن سلكة، الذى أسرنى وأراد قتلى، فقالت له: لقد زوجتنى منه، وجعل الزواج بينى وبينه مودة ورحمة، وهما يقضيان بأن أصنع المعروف معه، وأقوم بواجب حمايته، ودفع الشر عنه، ولا أستطيع ذلك من غيرك. فقال لها: كل ما أستطيع فعله، أن أرسل إلى عنترة هدية، وأشفع لزوجاك عنده، فإن عفا عنه فذلك ما نبغى، وإن أبى فما على المحسنين من سبيل. فقالت: على أن تذهب إليه أنت مع الهدية، فقال: ولك هذا أيضاً.

ركب عمرو وأخته ريحانة، وأخذ معه هدية عظيمة من الجمال والخيل، ونجم عبد الأسد الرهيص معهما، ومشوا إلى بنى عبس. ولما أشرفوا على الديار لقيهم الأسد الرهيص راكباً ناقة، وعليه خلعة سنية، فسأله هل أطلقت من أسرك؟ فقال: أطلقنى عنترة، فقال عمرو: وجب علينا أن نذهب إليه ونشكره، فرجع وزر معهم إليه، وإليك قصة إطلاقه:

* * *

عزم عنترة أن يصلب الأسد الرهيص صبيحة يوم من الأيام، ليمحو بقتله ظلمه وطغيانه، وفى ليلة ذلك اليوم خرجت عبلة فى طائفة من أترابها وبنى عمها، للترويح عن نفسها على غدير ذات الأرصاد، وكانت ليلة قمراء زاهية، وكانت عبلة بين أترابها ينم عنها جمالها وثيابها وحليها، وكن

قد مررن به فى طريقهن إلى الغدير، فلما رآها بينهن سأل عنها بعض العبيد الذين يحرسونه فقال: من هذه المرأة التى بين النساء؟ إنها ذات وقار وهيبة، وما أظنها إلا امرأة سيد أو أمير، أو الملك قيس بن زهير، فإن عليها من الحلى والحلل الشىء الكثير، فقالوا: تلك عبلة بنت مالك بن قراد، زوجة حامية عبس عنترة بن شداد. فصاح وزر قائلا: يابنة مالك، أجيرينى فأنت أهل لذلك، وقد طرقت باب كرمك الذى لا يرد سائلا، ولا يدع مستجيراً. فأقبلت إلى العبيد سائلة: من هذا الذى يستجير بى، ويطرق باب كرمى؟ فقالوا: ما أسرع ما نسيته!! إنه وزر بن جابر، فقالت: فكوا عنه وثاقه، واتركوه إلى سبيله، فقالوا: لقد جعله عنترة فى حراستنا، وما جوابنا إن طلبه ولم يجده، فقالت: إنه استجارنى وأجرته، فأخلوا سبيله، فخافوا منها وأطلقوه، وبلغ ذلك عنترة فأجاز ما فعلته عبلة، وأمر أن يأتوا به إليه، فلما حضر بين يديه قال له: قد أجزت ما فعلته عبلة إكراماً لها، ولك منى خلعة سنية، وناقة تحملك إلى ديارك، فاركبها واذهب إلى أهلك سالماً، ولبس وزر الخلعة، وركب الناقة، وأخذ طريقه إلى دياره، فلقيه عمرو وريحانة. وردوه معهم إلى عنترة.

وفرح عنترة بقدوم عمرو فرحاً كثيراً، وأكرمه ومن معه إكراماً سابغاً، وشكره على هديته شكراً جزيلا، ولبثوا فى ضيافته ثلاثة أيام، ثم ارتحلوا مزودين بالحفاوة والإكرام، فلما أوغلوا فى القفار قال عمرو للأسد الرهيص:

ماذا أضمرت لعنترة من المعروف والخير ؟ فقال : أضمرت له السيف والرمح والفناء ، فلا اكتحلت عينىء بهنى الرقاد، حتى أجعله مثلا بين العباد ، فقال عمرو : تبت يداك يا وزر ! فما أنت إلا لئيم غادر ، أبعد أن وهب لك حياة جديدة ، وأسبغ عليك نعمة عفوه — أبعد هذا — تضمر له الشر والبلاء ؟ ! لقد ضللت يا وزر وعميت ، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ولما طال الجدال بينهما ، فى غير فائدة ولا جدوى ، ترك عمرو مصاحبته ، وولى وجهه غاضباً نحو دياره . وسار وزر وزوجته وعبده إلى داره فى بنى نبهان . ودخلها فى ظلمة الليل ، خوفاً من شماتة الحساد والمبغضين .

انتشر فى الحى نبأ قدومه ، فوفدوا عليه يهنئونه ، وفيهم زيد الخيل بن المهلهل فقال له : كيف رأيت يا وزر ، إن الدهر يقبل ويدبر ، ويضحك ويعبس ؟ ! فقال وزر : وسأجعله يولى عن عنترة ويدبر ، وإن أنا نمت عن ثأرى فأنزل علىّ من قوارع التأنيب والتعيير ما تشاء ، ورب الكعبة لأسبين زوجة عنترة ، ولأذيقنه لباس التهلكة ، ولأجعلن دياره تنعى من بناها ! فقال زيد الخيل : وهل أمنت مصالحة الأيام ؟ ومن يدرى ! فقد يفعل بك عنترة فى المرة الثانية ، فوق ما فعله بك فى المرة الأولى ، ثم تركه يتقلب فى همه ، وذهب إلى بيته .

وذات يوم ركب وزر فى جماعة من فرسان بنى نبهان إلى بعض

الغدران . فلما وصلوا إليه ، وأخذوا مكانهم عليه ، قال لهم : يا بنى عمى ، لقد علمتم ما جرى علىّ من هذا العبد الأسود ابن الأمة ، وقد أصبح خبرى وخبره ، حديث كل قبيلة ، فإن كنتم عدتى وسلاحى فى كشف هذا العار عنى ، فأنا منكم وأنتم منى ، وإن خذلتمونى وانفضضتم من حولى قطعت صلتى بكم ولجأت إلى قوم غيركم ، فقالوا : نحن عدتك وعتادك ، ونفديك بالأموال والأنفس ، فشكرهم وأثنى عليهم ، ثم كتب إلى المنهال ملك بنى وائل — وكان هذا قد قتل عنترة أباه ناقد بن الجلاح — يستعديه على عنترة فقال فى كتابه : من الأسد الرهيص وزر بن جابر إلى المنهال ملك بنى وائل ، أما بعد فقد آن الأوان لأخذ ثأرك من قاتل أبيك ، العبد الزنيم ، عنترة ابن الأمة ، وإن لى ثأراً معه ، وعولت على قتاله ، وقد استعديت عليه أمثالك من الملوك ، فإذا جاءك كتابى فأسرع بفرسانك إلى الحضور إلينا . فلما قرأ الكتاب ركب فى خمسة آلاف فارس وسار بهم حتى وصلوا إلى ديار بنى نبهان ، فاستقبلهم الأسد الرهيص وذبح لهم الذبائح واطمأن إلى معونتهم له ، وشد أزره ، فى قتل عنترة ، ثم جمع هو جموعه ، وخرج الجيشان فى اليوم الرابع من قدوم المنهال وكانوا سبعة آلاف فارس ، وكانت وجهتهم ديار بنى عبس ، وكان عنترة قد عكف فى الحى ، فلا يرحل ولا يغير ، وكان سخى الكف ، مبسوط اليد ، فقل ماله على كثرة الإنفاق ، ولم يجد بدا من الخروج فى طلب المال . وفى ظلام الليل خرج

هو وأولاده غصوب وميسرة ومازن ، ومعه عروة ورجاله ، وساروا حتى بعدوا عن المضارب والخيام ، وسأله عروة إذ ذاك فقال : إلى من تقصد يا عنترة ؟ فقال : أريد بنى حمير وكهلان ، فقال عروة ، إلى حيث تشاء ، فنحن معاك أينما ذهبت ، فأمر أخاه شيبوباً أن يسير بهم إلى بنى حمير وكهلان ، فصدع بأمر أخيه ، وقادهم إليها والخذروف معه .

وفى الصباح تفقد بنو عبس عنترة فلم يجدوه ، فعزت عليهم غيبته ، وما لبثوا غير يومين من رحيله ، حتى أغار عليهم بنو نبهان ، وكان الربيع ابن زياد وأخوه عمارة ، ومن على شاكلتهم ممن يبغضون عنترة ، عند بنى فزارة ، وذلك أن حصن بن حذيفة ، خلف أباه بعد موته ، فأقام إذ ذاك وليمة جامعة ، ودعا إليها الربيع وأخاه عمارة ، ومن نحا نحوهم فى بغض عنترة والحقد عليه من أهلهم وعشيرتهم ، وكانوا مائة وخمسين فارساً ، فذهبوا إليه ، فاستقبلهم حصن وأجلسهم فى أكرم المجالس ، ودار بهم الحديث فى شئون مختلفة ، حتى جرى على ألسنتهم ذكر عنترة ، فقال الربيع بن زياد : إن قلبى ليضطرم أسى من ذلك العبد الزنيم ، ووددت لو أقتله ، وقد كرهت الملك قيسا صهرى من أجله ، لأنى أجد ميله معه ، فتذكر حصن قتل عنترة أباه وأعمامه وقال : وإنى لأبغضه بغض الأرض للدم ، ولن أنسى ما فعله بأبى وأعمامى ، ولكنى أبشرك يا ربيع ، فقال : وبم تبشرنى ؟ فقال : أتانى بالأمس ثلاثة من شياطين العرب ، وأخبرونى أن

الأسد الرهيص قد سار إلى عنترة فى سبعة آلاف فارس ، فإن أردت أن تشفى فؤادك فلتركب فى صبيحة الغد فى جمع من فرساننا ، ولنذهب إلى الأسد الرهيص لنكون عوناً له فى قتل هذا العبد وسبى عبلة . فقال الربيع : لقد أصبت فى رأيك ، وإنى أبشرك أيضاً ، فإن عنترة الآن غائب عن الديار ، لأنه سار إلى بلاد اليمن ، فإذا أسرنا من فى الديار من النساء أمرت رجالنا أن يرحلوا بنسائنا نحن إلى أرضكم ، ثم نصب البلاء على بقية الأسرى من رجال ونساء ، وإذا عاد عنترة من غيبته دبرنا حيلة لهلاكه ، فأعجب حصناً هذا الرأى ، وباتوا متفقين على تنفيذه . وفى الصباح ركب حصن والربيع فى مائتى فارس من بنى فزارة ، وجدوا سائرين إلى الأسد الرهيص حتى التقوا به ، وعرفوه بأنفسهما وما اتفقا عليه ، وما بينهما وبين عنترة من ضغينة وثأر ، وأن عنترة غائب عن الديار ففرح بهما ، وسار الجميع فى هذا الجيش العرمرم حتى أشرفوا على الشربة والعلم السعدى ، وهناك وقف الأسد الرهيص بالجيش وقال للمنهال : خذ ألفين من الفرسان واهجم بهم على أموال بنى عبس ، وسق أمامك ما تقدر عليه من النوق والجمال ، فإذا سمعت صياح القوم من خلفك ، ورأيتهم يطالبونك ليردوا أموالهم ، فأعط مائة من الفرسان تلك الأموال ، ثم ارتد أنت ببقية جيشك إليهم ، وأشهروا الأسلحة فى وجوههم ، وسأهجم أنا ببقية الجيش عليهم من خلفهم وعلى ديارهم ونعمل فيهم الأسلحة وحينئذ يكون قد سقط فى أيديهم ،

ووقعوا فى أسرنا وقبضة أيدينا ، وتكون فرساننا الذين هجموا على الديار قد سبوا النساء ونهبوا ما بقى من الديار وتركناها قاعاً صفصفاً . فقال له سمعاً وطاعة .

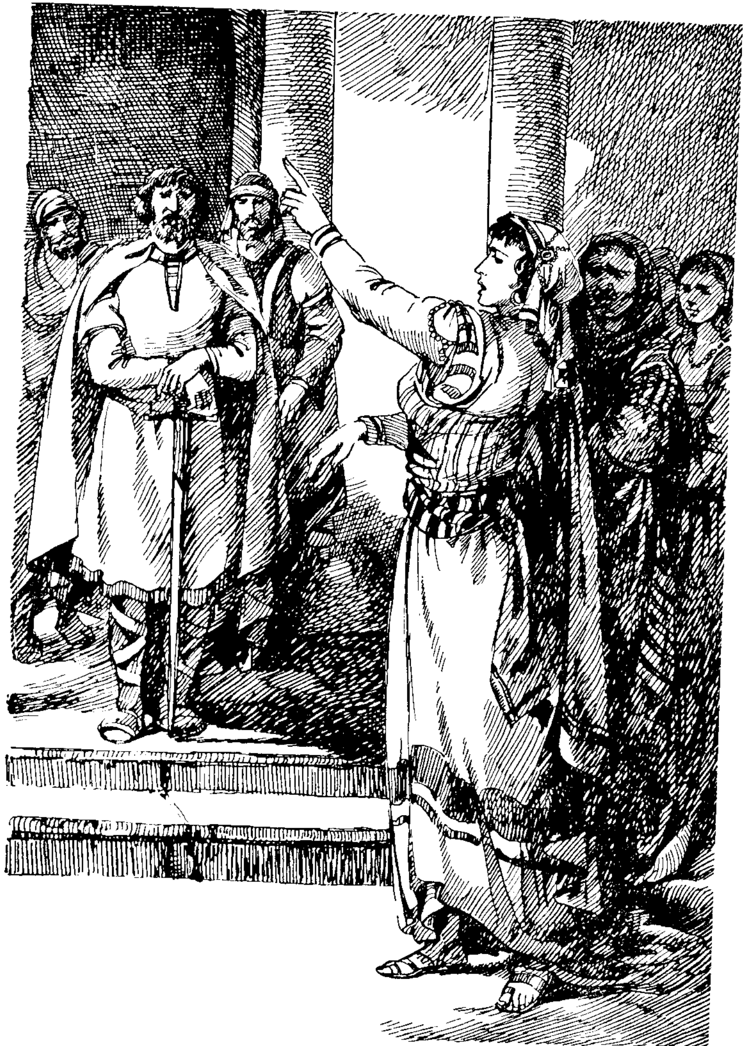
هجم المنهال على الأموال ، وساقها أمامه وكانت ستة آلاف ناقة غير رعاتها وأولادها ، وارتفعت الصيحات ، ونهض الملك قيس فزعا بما سمع ، وسأل عما وقع ، فقالوا : هجم علينا فرسان لا يحصون عدًّا فساقوا أموالنا ، وفيهم المنهال بن ناقد الحلاج ، فنادى فى الأحياء بالنفير ، وخرج وراءهم فى فرسان بنى عبس ، فلما أحس المنهال قدومهم ، سلم الأموال إلى رجل من بنى عمه ، يقال له قضاعة بن فياض ومعه مائة فارس ، وقال له : امض بهذه الأموال إلى المكان الذى كنا فيه ، ثم رجع المنهال واستقبل بنى عبس برجال كالسيل ، ونشبت بين الفريقين معركة دامية ، ذاق فيها بنو عبس مرارة الكفاح و بأس القتال ، و بينما هم فى شدة المعركة هجم الأسد الرهيص على الديار بجنوده من كل ناحية ، فسبوا النساء والأولاد والبنات ، ودوى الصياح فى الأجواء ، فالتفت الملك قيس وراءه ، فرأى بين البيوت سيوفاً تلمع ، وأسنة تسطع ، والنساء يدفعن عن أنفسهن هذا العدو الغادر ، وقد سلم الأسد الرهيص السبايا إلى مائتى فارس. وأمرهم أن يسوقوهن إلى المكان الذى كانوا فيه ، ثم أطبق على جيش بنى عبس ونادى فيهم : أنا الأسد الرهيص ، أنا وزر بن جابر ، ودارت المعركة على أشدها حتى قتل منهم ثلاثمائة وأسر كثيراً من سادات بنى عبس، وفيهم جندلة أخو الملك قيس.

ولم يجد بنو عبس محيصاً من الفرار ، ففروا وهربوا ، وقد أسرت رجالهم ، وسبيت نساؤهم ، وعبلة وأمها ونهبت أموالهم ، وكانوا يسمعون صياح السبايا وهم لا يقدرون على خلاصهن ، ورأت عبلة بنى عبس يهربون إلى الروابى والتلال فصاحت : وافضيحتاه ! واعنتراه ! فلما سمع المنهال نداءها ، أقبل إليها وقد أدهشه جمالها ، فرق لبكائها ، وسأل عنها فقيل له : إنها عبلة بنت مالك بن قراد ، وزوجة عنترة بن شداد ، فقال لها يا ابنة الأحمق الجاهل ، الذى زوجك بعبد أسود لئيم ، سوف أذيقه العذاب الأليم ، فقالت : اسكت أيها الوغد اللئيم ، لو كان عنترة حاضراً ما جرؤ جمعكم هذا أن يخطو خطوة واحدة نحو الديار ، فاغتاظ المنهال وقال : وسوف أذيقك أنت الذل والهوان .

كان الربيع قد حاول أن يخلص نساءه ونساء إخوته من المنهال فما استطاع ، وما التفت إليه المنهال ، لأنهم فى شدة من القتال ، يذهل فيها الرجل عن ابنه وأبيه ، فلما انتهت المعركة بهزيمة بنى عبس وسبى نسائهم ، ورأى الربيع نساءه ونساء إخوته من بينهن ، قال لحصن ، إن ما وقع من سبى نسائنا لم يقع فى حسابنا ، ولا اتفقنا أن السبى يجرى علينا ، فقال وهو مهموم مألوم : لو علم عنترة أننا كنا مع الأسد الرهيص فإنه لا يبقى منا أحداً ، وقل علينا السلام . وأرى أن نستدرك ما فاتنا ، ونصلح أخطاءنا ، وذلك أن نصبر حتى ينزل الجيش جميعه للراحة . ثم نطالب الأسد الرهيص

والمنهال بقسمة الأموال ، وحينئذ نقول : اجعلوا نصيبنا أن تعطونا نساءنا ونساء من نختاره من بنى عبس ، ثم نأخذهن أنا وأنت ونسلمهن للملك قيس بن زهير ، وندبر له زخرفاً من القول على حسب ما نرى . فقال الربيع : حسناً رأيت .

أما الأسد الرهيص فإنه قال للمنهال : اعلم أننا أقدمنا على أمر جسيم ، وأن عنترة فارس لا يقعد عن ثأر له ، وأن الملك قيساً ملك خطير الشأن ، ولا بد أن يجمع جموعه ويسترد كرامته ، وأن حصناً والربيع بن زياد أولاد عم لهؤلاء القوم ، ولا نعلم ما فى قلوبهم من عتب علينا وألم ، ولا نأمن مكرهم وغدرهم ، وأرى أنه إذا نزلنا بالجيش والأسرى ، ونزل حصن والربيع معنا أقول لكم : اقسموا الأموال ، ولا تدعوا أحداً يلومنا ، ويعتب علينا ، وأعطوا حصناً والربيع نصيبهما ، حتى يمضيا مصحوبين بالسلام — إذا قلت ذلك — فقل أنت : لا والله يا وزر ، لا ينبغى أن توزع هذه الأموال ، ولا ينبغى أن يأخذ أحد منها عقال بعير ، فنحن المطالبون بها ، وتبعة نهبها واقعة علينا ، ولأى شىء تعطى هؤلاء من غنيمة كسبناها نحن بقوائم سيوفنا ؟ ! وهم إلى ذلك من جملة أعدائنا ، وحينئذ أنا آمر بالقبض عليهما ، وعلى من معهما من رجال بنى فزارة ، فقال المنهال : هذا رأى صائب ، ولكنى رأيت أمراً ، وسأعرضه عليك ، فإن رأيته صواباً وأعجبك فلا تهمله . وذلك أن الربيع وحصناً ومن معهما من رجال بنى فزارة ما فعلوا ذلك وجاءوا



سبايا بنى عبس أمام المنهال وعبلة تصيح وا عنتراه !

معنا لمحاربة بنى عبس إلا لضغينة فى صدورهم ، وخلاف بين بعضهم وبعض ، وحسد بعضهم لبعض ، وما الفائدة من أن نصبر عليهم حتى قسمة الأموال ؟ ! وأرى أن نقبض عليهم من الساعة والوقت ، وعلى من معهما من رجال بنى فزارة ثم نسير بجيوشنا إلى ديار بنى فزارة ، ونهجم عليهم فى الصباح ، ونفعل بهم كما فعلنا ببنى عبس . لتكون المطالبة بالثأر واحدة ، لأن عنترة إن جاءنا وطالبنا بثأره انضم إليه بنو فزارة ، فإذا قطعنا الآن دابرهم ، ضاعت مطالبتهم ، فقال الأسد الرهيص : إنك فى رأيك أهدى منى وأحزم .

وفى الصباح نفذ الأسد الرهيص ما أشار به المنهال ، فأمسك الربيع وحصناً وكتفهما ولم يستطع أحد من أتباعهما الفزاريين أن يفعلوا شيئاً لكثرة جيش الأسد الرهيص وقوته ، ثم أمر بسوقهم جميعاً إلى أسرى بنى عبس . وربطهم فى الحبال ، ثم استشار المنهال فيما يفعله ، فقال : يسير بهؤلاء الأسرى قدامنا أربعمائة من فرساننا ، ونسير نحن ببقية الجيش إلى ديار بنى فزارة ، فننهب ما فيها ونتركها خراباً ، وبذلك نكون قد قطعنا رأس الحية وذنبها ، فأحضر الأسد الرهيص قضاعة — أحد فرسانه — وأضاف إلى المائة فارس الذين معه ثلاثمائة ، وقال له : خذ الأسرى والسبايا والأموال ، واحرص عليهم وتفقدهم من حين لآخر ، وسر قدامنا على مهل حتى ندركك ، وسيكون اجتماعنا بك على مياه بنى هلال ، فقام قضاعة بما أمر ، ومضى بالأسرى والسبايا والأموال .

وأخذ الأسد الرهيص والمنهال بقية الجيش وأغاروا على ديار بنى فزارة ، فنهبوا أموالهم وأسروا رجالهم ونساءهم وعيالهم ، وقتلوا من تصدى لهم ، وساروا بهم حتى وصلوا إلى قضاعة ، وضموا أسرى فزارة إلى أسرى بنى عبس ، والتفتت عبلة فرأت فى جملة الأسرى الربيع بن زياد وأخاه عمارة ، وحصناً وبنى فزارة ، فقالت للربيع : بلغنا يا ابن زياد أنك ائتمرت مع القوم بأهلك وعشيرتك ، وإن كل ما أصابنا بسببك ، عجل الله هلاكك ، فما وقعت فيما أنت فيه إلا بما قدمته يداك ، فقال : والله يا بنت العم ما فى نفسى شيء مما تقولين ، وما كنا إلا فى الوليمة ، فدهمنا بالفرسان من كل ناحية ، ودافعنا أشد المدافعة ، ولكنهم قهرونا وأسرونا بكثرة عددهم ، وساقونا أمامهم ولا ندرى ما تم فى بنى فزاره ، ولو كان ذلك من تدبيرى ما كنت أنا وإخوتى ونساؤنا فى هذا الأسر المهين ، وليس لنا مخلص من هذا الضيق إلا إن جاءنا حامية بنى عبس وبطلنا وابن عمنا عنترة ، ثم نشط الأسد الرهيص بالسير بهم إلى دياره .

وكان المنهال قد شغف بعبلة حبًّا ، وبدت عليه آثار الهيام بها ، فشكا إلى ابن عم له ، اسمه واقد بن فياض وقال له : يابن عمى ، قد اخترتك لإلقاء سرى فى صدرك لتصونه ، ولتأخذ بيدى ، وتساعدنى فى بلوغ أمنيتى ، ثم حدثه بما فى نفسه من الهيام بعبلة ، وحرصه على أن تكون له ، فقال له : طب نفساً ، فأمرك يسير ، فنحن إذا وصلنا إلى

الحلل ، أخذناها من وزر ، وزوجناكها طائعة أو كارهة . فقال له : اذهب إليها الآن ، واخطبها من نفسها لى ، فإن أجابت بالقبول . نقلتها إلى هودج وأحسنت إليها ، فإنى لا أطيق ما هى فيه من سبى ومهانة ، فحث واقد جواده ، وصار حتى حاذاها ، وكانت فى وسط الظعن فقال لها : يابنة الكرام ! أتيتك بأمر فيه صلاح حالك . فقالت : وما ذاك ؟! فقال : إن الملك المنهال قد أحبك منذ رآك ، ولا يريد أن يأخذك مسبية ، وإنما يريد أن تكونى له زوجة ، بدلاً من هذا العبد الأسود ، راعى الجمال والغنم. فأطرقت عبلة وفكرت ، وكانت ذات عقل سليم ، وتدبير حازم مستقيم ، صقلتها التجارب ، وعركتها النوائب ، وقاست من عجائب الزمن ما جعلها واسعة الخبرة ، صادقة الحيلة ، ثم رفعت رأسها وقالت : أيها السيد الماجد، أقول لك الحق ولا أكذبك ، إنى لا أحب أن أرى وجه هذا العبد الأسود ، ولقد زوجنى منه أبى غصبا ، وما عاشرته إلا كرها ، وإنى أحمد القدر الذى ساق لى من ينقذنى منه ويريحنى ، والملك المنهال أحب إلى نفسى ، وخير من عنترة عندى ، ولكن على شرط أن يتركنى حتى يستقر بنا المقام فى ديارى ، ثم يخطبنى من أبى على مشهد من رجال العشيرة ، فإذا زوجنى منه كفل لنا قتل هذا العبد الذى ما جنيت من ورائه إلا السبى والمهانة ، ثم نرحل إلى دياره ، ونعيش فى أمن ودعة ، وهذه يدى أصافحك على ما سمعت. ففرح واقد واطمأن ، ورجع من فوره إلى المنهال

وقص عليه ما كان من عبلة ، فانتعش واستبشر وقال : ورب الكعبة لادخلت بها ولا وصلت إليها حتى أضع رأس هذا العبد فى حجرها ، ليطمئن بقتله فؤادها . وكانت بعد ذلك للمنهال شغله الشاغل ، واهتمامه الكامل، ورعايته الجميلة . وساروا جميعهم حتى كانوا فى ديار بنى نبهان، والأسد الرهيص فرح بنصره .

* * *

ولما خلت ديار بنى عبس من الأعداء ، رجع إليها من كان قد فر منهم إلى الروابى والتلال ، فما وجدوا شيئاً فيها ، ولا مضارب يأوون إليها ، حتى الملك قيس فإنه لم يجد مضرباً يلوذ به ويلتجئ إليه . فقعدوا غارقين فى حزن أليم ، وبعد فترة من قعودهم ، وفد عليهم بنو فزارة المهزومون . وأكثرهم مجروحون ، ينادون بالويل والثبور ، فجمع الملك قيس حوله من بقى من الفرسان ، وعول على أن يكتب إلى بنى غطفان ، وبنى مرة وبنى ذبيان . وهم جميعاً فى أسف وحسرة لغياب عنترة . أما عنترة فما زال سائراً بمن معه حتى أناخ على بنى حمير فساق أموالهم ، وخرج عليه الرجال ووقعت بينه وبينهم حرب أظهر فيها من الفروسية ما حيرهم، فشتت شملهم وبدد جمعهم ، ولاذوا بالفرار .

وأحصى المال والغنائم وكانت شيئاً كثيراً . فقال عروة : ليس لنا بعد ذلك بقاء فى هذه الأرض ، فقد غنمنا من الأموال أكثر مما كنا نطمع .

فقال عنترة: ولا ينبغى أن نغيب عن الديار أكثر من ذلك ، ثم حزموا أمتعتهم ، وساقوا أموالهم ، ورحلوا لساعتهم . ولما قربوا من الديار ، لم يكن بينهم وبينها إلا مسيرة يوم قال عنترة لشيبوب ، أسرع أنت إلى الأهل والعشيرة ، وبشرهم بقدومنا ، ليفرح الأحباب ، وتنفطر مرارة الحساد من بنى زياد ومن على شاكلتهم ، فانفلت شيبوب وغاص فى القفار مجداً مسرعاً حتى وصل إلى الديار فوجدها قفراء خالية فجعل يجول فى أماكنها حتى عثر ببعض الرجال ، وعلى وجوههم آثار البؤس والحزن الأليم ، فسألهم : ماذا جرى عليكم ؟ فقالوا : قتلت الرجال إلا من هرب ، وأسرت الأبطال ، وسبيت النساء والبنات والعيال ، ونهبت الأموال ، وتركت الديار كما تراها . فقال شيبوب : وأين الملك قيس وعشيرته ؟ فقالوا : والله يا شيبوب لو رأيته ما عرفته ، وما بقى له غير فرسه الذى امتطاه وطلب به السير هرباً . وما فعل بنا هذا إلا الأسد الرهيص وزر بن جابر ، وستجد الملك قيساً فى تلك الناحية ، — وأشاروا إليها — فذهب إليه وسلم عليه ، وقال : ما هذا الذى جرى على الديار فى غيبة أخى عنترة ؟ فقال : دهمنا الأسد الرهيص فى سبعة آلاف فارس ، على غفلة من رجالنا وفرساننا ، وكنت غائباً فى الصيد والقنص ، فنهب الأموال ، وسبى النساء ، وترك الديار كما تراها ، ومضى علينا أيام لا نجد شيئاً نأكله إلا ما تجود علينا به الأرض من نباتها ، فقال له : أبشر أيها الملك الكريم ، فقد أتاك أخى

عنترة بأموال تملأ بقاع الديار ، وسوف يسترد أموالكم ونساءكم ورجالكم ، ويسقى الأسد الرهيص كأس الذلة والهوان ، فقال الملك : امض يا شيبوب إلى أخيك وأخبره بما نحن فيه . ليأتينا على عجل ، فانطلق شيبوب إلى عنترة وأخبره ، فزاغ منه البصر من ثقل ما سمع ، ثم قال : لقد كفر الأسد الرهيص بنعمة ربه ، وسأجعلها عليه نقمة ، وفى حلقه غصة ، ولن يفلت من يدى هذا الوغد اللئيم الفاجر . وجد فى المسير حتى وصل إلى الديار ولقى الملك قيساً وقال له : كل شىء يهون ما دمت سليماً معافى ، وهذه الأموال التى أتيت بها ملكك ، وتحت أمرك ونهيك ، أما أموالكم فسأردها إليكم كاملة لم يفقد منها عقال بعير ، وأما الأسرى والسبايا فيرجعون إلى الديار مكرمين ، وأما الأسد الرهيص فسأجعله مثلا وعبرة للعرب أجمعين . ثم أخذ عنترة فى توزيع الأموال على الكبير والصغير ، حتى أظل من فى الديار بظلال من الغنى والثراء . فطابت نفس قيس وزال ما به من هم وغم ، ثم جلسوا يتشاورون فيما يفعلون ، فخاضوا فى الاستعانة بفلان وفلان ، وعنترة ساكت لا يتكلم ، فقال له الملك : وما رأيك يا عنترة ؟ فقال : أرى أن خلاصنا فى أسنة رماحنا ، ولا نعتمد على أحد غيرنا . ثم قام وتفرق الناس ، وذهب كل إلى شأنه . أما عنترة فإنه اختلى بعروة وقال له : أنت تعلم أنى ذهبت إلى الأسد الرهيص وليس معى إلا شيبوب وعبلة ، فذبحت الكبش وأسرت ريحانة زوجته ، ولما جاء فى

طلبها أسرته ثم عفوت عنه وأطلقته ، والآن أحب أن تسير معى ولا نأخذ معنا إلا أبنائى ومن نصطفيه من فرساننا ورجالنا لنسترد الأموال ، ونخلص الأسرى والسبايا ، ونلبس الأسد الرهيص وأعوانه لباس العذاب الهون ، ومذلة الأسر وهوانه ، فقال : عروة : أشر بما ترى ، فإنى معك أينما سرت ثم ذهب إلى الملك قيس وقال له : لا أحب أن أكلفك مشقة فى قتال هذا الوغد الغادر الأسد الرهيص ، فإنى سأذهب إليه فى طائفة من أبنائى وعروة ومن نختارهم من فرساننا ، فقال قيس : ونحن لا يهنأ لنا بال إلا إذا كنا معك برجال بنى عبس ، فإنى أخشى أن تجد العدو فى كثرة من العدد لم تكن فى الحسبان ، فقال عنترة : لا يهمنا كثرة ولا غيرها ، والآجال مقدورة ، وإن شاء الله لا يبلغك عنا إلا ما يسرك ، ثم ودعه ، وسار فى خمسمائة فارس أشداء كأنهم العقبان وهو فيهم كأنه ملك الجان .

ولما كان بينهم وبين ديار بنى نبهان مسير يومين قال عنترة لشيبوب : أنت أخبر بالديار ومسالكها والأماكن الحصينة فيها ، فانزل بنا فى مكان يشرف عليهم من فوقهم ويكون لنا فيه ملاذ وحمى ، حتى لا يعتصموا منا بجبلى أجأ وسلمى ، أو يرسلوا إلى ملجم بن حنظلة وأخيه يزيد الملقب بشارب الدماء ، وحينئذ يهجمون علينا من أيسر السبل إلينا ، فتطول بنا الحرب ، وأنا لا أريد إلا أن نجهز عليهم ونقهرهم ، ونخلص الأموال والأسرى والسبايا منهم فى أقل زمن لنعود إلى الديار فى أقرب فرصة ، فقال : سمعاً وطاعة . وهأنذا

سائر إليهم ، لأدبر لك ما أردت .

تنكر شيبوب فى ثياب شيخ كبير ، مضطرب الأعصاب ، لا تفارقه رعشة يديه ، ولا تكاد رجلاه تحملانه ، وتوكأ على عصاه ودخل ديار بنى نبهان فوجدها تموج بالرجال والمال ، ووجد الأسد الرهيص جالساً إلى جانب المنهال فى وليمة حافلة بالرجال وموائد الطعام والشراب والخمر ، والجوارى يلعبن ويضربن بالدفوف بين أيديهم ، لأن الأسد الرهيص غره انتصاره وما غنم فاطمأن إلى مصالحة الأيام وغفل عن تنكرها وإدبارها ، معتمداً على ما عنده من الخيل والأسلحة وكثرة الرجال . ثم رجع شيبوب إلى أخيه وأخبره بما رأى ، فتشاوروا فى اختيار الوقت الذى يغيرون فيه على الأسد الرهيص وقومه ، واتفقوا على أن يكون ذلك فى الصباح ، وأجسام القوم خدرة من شرب الخمر فى ليلتهم . وفى الصباح خرج الرعاة يسوقون الأموال إلى المراعى ، وكانت لا تحصى ، وفيها أموال بنى عبس وبنى فزارة ، وكان معهم كثير من أصحاب الأموال ورعاتها فقال عنترة لعروة ، خذ معك مائة فارس واهجم بهم على الرعاة ، وسوقوا الأموال قدامكم ، ودعنى أنا ومن معى نرد عنكم من يتبعها من الرجال والفرسان ، فانقض عروة ورجاله على الرعاة ، وأخذوا يضربونهم ويسوقون الأموال أمامهم ، وكان عروة ينادى : يا لعبس ! يالعدنان ! فعرف رعاة بنى عبس وفزارة أن عنترة قد جاء ليخلص الأسرى والأموال فانهالوا على رعاة الأسد الرهيص

ضرباً ورمياً بالحجارة ، وفر جماعة منهم إلى ديار بنى نبهان وهم ينادون بالويل والثبور ، ووصل الخبر إلى الأسد الرهيص فركب جواده ونادى فى قومه بالنفير ، وأن الأموال قد نهبت ، والرعاة قد قتلوا ، فاجتمع من حوله سبعة آلاف وسار فيهم إلى عنترة ، الذى اعتقد أنه ما جاء إلا ليقتله ، فلما التقى بعنترة وفرسانه الأربعمائة نادى فى جيشه وقال : دونكم هذا الشيطان فمزقوه ، فلما سمعه عنترة انقض بفرسانه على الأسد الرهيص وجيشه وأعملوا فيهم السيوف والأسنة ، فتطايرت الرءوس ، وسالت الدماء ونفذت الرماح فى الصدور والأبدان ! وما زالوا فى عراك شديد حتى رد عنترة وفرسانه أعداءهم إلى خيامهم وكان الليل قد أقبل فافترقوا وبات بنو عبس فى نشوة من نصرهم ، وبات بنو نبهان فى حزن أليم مما أصابهم . وفى الصباح اشتبك الفريقان ، واشتعلت بينهما نيران القتال ، وأخذ بنو عبس يفتكون بالفرسان ، ويردون كثرتهم إلى نقصان ، حتى اشتد لهيب الظهيرة فانفصلوا وسكتوا عن القتال للراحة ، ولينتظروا برد الهواء ، فلما رأى بنو نبهان ما أصابهم فزعوا إلى الأسد الرهيص وقالوا : لقد أصبتنا بهذه الحرب التى إن دامت على هذه الحال ، فكلنا إلى الفناء ، فقال : إن كنتم عجزتم عن قتالهم فأنا لهم ، وما أنا بتاركهم ، وغداً أجرعهم كئوس الهزيمة ، وأقتل صاحبهم عنترة ، أو أسوقه إليكم أسيراً ذليلا . ثم أبطلوا القتال ذلك اليوم ، وما قتل من بنى عبس أحد ، لا أبيض ولا أسود ، وكان عنترة قد

ملك عليهم فم الوادى ، فوكل حراسته إلى غصوب وميسرة وسبيع اليمن وعروة فى خمسين فارساً ، وباتوا يرتقبون النهار .

أما الأسد الرهيص فإنه جلس إلى المنهال وقال له : إن عنترة وفرسانه قد جاءوا ديارنا واستردوا أموالهم ، وما هم براجعين عنا حتى يخلصوا أسراهم وسباياهم ، وقد دبرت حيلة لإبادتهم وسحقهم ، قبل أن يبلغوا فينا أمنيتهم ، وذلك أن أرسل عبدين من عبيدى مع عبدك نجم إلى الملكين : ملجم بن حنظلة ، وشارب الدماء ، ونخبرهم أن عنترة أغار علينا بخمسمائة فارس ، وقد ضيقنا عليهم الخناق ، وما بقى للقضاء عليهم إلا ليلة واحدة ، لأننا ملكنا عليهم الطريق ، وأريد أن تغيروا عليهم من ورائهم ، ونحن نلقاهم بالسيوف من الأمام ، حتى نمحقهم وننسخ ظلالهم ، ونستريح من شرورهم ومن شر هذا العبد الزنيم عنترة ، ففرح المنهال بهذا التدبير ، وأحضر عبده نجماً وأحضر الأسد الرهيص عبدين قويين ، وأنفذهم من خلف عنترة وفرسانه إلى الملكين ومعهم كتابان لهما بما دبر ، وفى الصباح نشبت المعركة بين الطائفتين ، وخاض عنترة بجواده حتى قارب بنى نبهان ، ونادى ، ويل لك يا وزر ، ولعن الله بطناً حملت فيه ، ومرضعة غذتك بلبنها ، لأنك كفرت بنعمة العفو عنك ، وغدرت بمن وهب لك الحياة . ولن أدعك فى هذه المرة تنشق للحياة نسيما . فلما سمعه الأسد الرهيص قال للمنهال ، سأطاوله فى القتال حتى يأتى الملكان بجنودهما وحينئذ تكون القاضية ،

وسأريك الآن ما أفعله به ، ثم تقدم إليه ، وقامت بينهما ملحمة عنيفة ثار لها الغبار وتكاثف ، حتى غطاهما وسترهما بظلامه ، واستمرا على هذه الحال حتى انتصف النهار ، وأحس الأسد الرهيص ضعفاً وضيقاً ، وأيقن أنه واقع فى أسر عنترة ، فأراد أن يتقهقر ، وأحس عنترة ضعفه وخوفه وتقهقره، فخشى أن يفلت من بين يديه هارباً ، وهجم عليه ليأسره ، وإذا ضجة من خلفه تدوى فى الأجواء ، وسمع أصواتاً تقول : البدار ، البدار ، إلى هذا العبد الغدار ، وقد ماجت الأرض بمن عليها ، فتركه عنترة ورجع إلى فرسانه . ليدفع عنهم هذا البلاء النازل ، ويطرد هذه الجيوش القادمة ، فحمل عليهم فى بنى عبس حملة صادقة ، ونادى الأسد الرهيص فى قومه أن احملوا على أعدائكم فى هذه الفرصة ، فقد حبسناهم بيننا وبين الجيوش المغيرة عليهم ، ليس لهم الآن من الهلاك مخلص ولا سبيل . وما زال القتال على أشده ، وبنو عبس يحصدون أرواح الأعداء فى شدة ، حتى ضاقت عليهم السبل لأنهم محصورون فى كثرة من فرسان الأعداء الأشداء ، وأحسوا أنهم مشرفون على الهلاك . وبينما هم على هذه الحال من الضيق إذ سمعوا جلبة جيش قادم ، يتدفق فرسانه تدفق السيل ،وينادون : يا لعبس يا لعدنان ! وانقضوا على جيوش ملجم وشارب الدماء انقضاض العقبان، وكان يوماً عبوساً على الأعداء ، ولما انقضى النهار سكت القتال وانفصل الفريقان .

وكان السبب فى مجىء قيس بجيشه أنه قال لقومه . إنه من الواجب علينا أن ندرك بجموعنا عنترة ، فإن وجدناه على خير هنأناه ، وإن وجدناه فى ضيق نفسنا عنه ونصرناه ، ثم جمع الجموع وأسرع بها إلى عنترة فوجده فى أحرج مواقفه ، فكشفوا عنه شدته ، وفرح عنترة بما فعله الملك قيس وشكره ، أما بنو نبهان فقد أذهلهم فعل بنى عبس وصبرهم . ولكن الأسد الرهيص كان يعدهم ويمنيهم ، وسلم على الملك ملجم وشكره . ووعده أن يبرز غداً إلى عنترة ويسوقه أسيراً ، وفى الصباح بادر الأسد الرهيص إلى الميدان وقال : أين عنترة بن شداد ؟ إن كان بطلاً كما يقول فليخرج إلى مبارزتى ، فما أتم كلامه حتى كان عنترة أمامه وقال : دع عنك هذه الأباطيل ، ثم هجم عليه فأمسكه من تلابيبه وقلعه من سرجه . وساقه أسيراً ذليلا ، فعلت صيحات الاستحسان فى بنى عبس ، وعلت صيحات الأسى والأسف فى بنى نبهان وبنى طيىء ، وحملوا على بنى عبس يبغون خلاص وزر بن جابر من قبضة عنترة ، فقابلهم بنو عبس بسيوف ورماح تحمل الموت الزؤام ، وكاد المنهال أن يقتل عروة . ولكن غصوباً أدركه وضرب المنهال بعقب رمحه ضربة ألقته عن جواده . فانقض عروة عليه وكتفه ، ولم تكن غير ساعة حتى ولى بنو طيىء مهزومين . وخرج من بينهم ثلاثون فارساً ينادون : ياالعبس ! ياالعدنان ! وكانوا فى الأسر موثقين فتسلل شيبوب إليهم وفك رباطهم وأحضر لهم جياداً وأسلحة وأخلى سبيلهم

وكان فيهم الربيع بن زياد وحصن بن حذيفة . وفر ملجم بن حنظلة ويزيد الملقب بشارب الدماء ، وهربت جيوشهما فى فزع مما وجدوا ، وتمت المعركة ، وانجلت شدتها ، بنصر عنترة وقومه ، فأخذوا أموالهم ، واستردوا أسراهم وسباياهم ، ولكن عنترة بحث عن عبلة فى السبايا فلم يجدها ، فقلق واضطرب ، وسارت به الظنون فى كل مذهب ، وبينما هو فى تفكيره وقلقه إذا صوت يناديه ، فالتفت إليه فرأى شيبوبا ومن خلفه عبلة ، فأسرع وأخذها ، ثم رحلوا بعد ثلاثة أيام ، وغنموا من بنى نبهان مغانم كثيرة ، وربط عنترة كلا من وزر بن جابر والمنهال على جواده ، وقال الملك قيس يا أبا الفوارس : لا ينبغى أن تمهل وزر بن جابر ، فاقطع عنقه ، وأرحنا من شره ، فقال عنترة : ذلك ما عزمت عليه ، ولكنى أردت أن أحمله على جمل يطوف به حلل عدنان وقحطان ثم أقتله ، وتقدمت إذ ذاك عبلة ، وقالت لعنترة : وحياتى ، لتحسنن إلى أم المنهال ، ولا تؤاخذها بما فعل ابنها فقد أكرمتنى من أجلك ، وكثيراً ما حذرت ابنها منك ، ونصحت له ، ولكنه عصاها لغروره وجهله ، وقد ألبستنى حللى بعد أن أخذها المنهال منى فقال لها : كل عين يكرم لها ألف عين ، وأطلقها وأطلق المنهال ابنها ووهب لها أسرى قومه . إكراماً لعبلة . وكان فيمن أطلقهم ريحانة زوجة وزر بن جابر وأخت صديقه عمرو بن معديكرب ، فرجع جميعهم ومعهم أموالهم فرحين إلى ديارهم ومنازلهم . وعاشوا وكأنهم لم تنزل بهم ضائقة وشدة .

وجد عنترة ومن معه فى المسير إلى الديار حتى وصلوا إليها ، فنزلت الأقوام فى أماكنها ، وعمرت بهم الأوطان والمنازل ، وأمر شيبوباً أن يربط الأسد الرهيص فى أوتاد من حديد ، وأن يعكف عليه بالضرب المبرح الأليم ، ففعل ما أمره به أخوه عنترة ، وتركه إلى جماعة من جبابرة العبيد ، يضربونه ويسقونه كئوس الهوان والمذلة .

أما بنو نبهان الذين أخلى سبيلهم عنترة فإنهم ذهبوا إلى زيد الخيل وحكوا له ما فعله عنترة بالأسد الرهيص ، وكيف عفا عنهم وأخلى سبيلهم ، ورد إليهم أموالهم ، ففرح وأثنى عليه ، كما فرح بما فعله بالأسد الرهيص من الأسر والإهانة ، لأنه وصاه ألا يتعرض لعنترة فلم يقبل وصيته ، ولم يستمع لنصيحته .

أقام الأسد الرهيص فى العذاب الأليم والضرب الوجيع حتى جاء قيس إلى عنترة وقال : لا غناء لنا فى بقاء هذا الوغد الغادر ، وأرى أن تعجل بقتله . وتريحه مما يقاسيه من ضروب العذاب ، فأمر عنترة أخاه شيبوباً أن يقيم خشبة يصلبه عليها ، وأن يطوف المنادى فى الأحياء قائلا : سيصلب عنترة الأسد الرهيص ، فليحضر جميع العرب صغيرهم وكبيرهم ، رجالهم ونساؤهم ، ليشهدوا صلب هذا الخائن الغادر .

اجتمعت النساء والرجال فى مكان الصلب ، ينتظرون وقوعه وهم شامتون بهذا الجاحد الخائن ، الذى لا مروءة عنده ولا وفاء ، وإذا خيل



الأسد الرهيص مربوط فى عمود من حديد ويضرب بالسوط

مقبلة تحمل فرسان بنى زبيد ، وفيهم عمرو بن معد يكرب وأخوه عبد الله وأخته ريحانة ، وكانت ريحانة هذه بعد أن أكرمها عنترة وأخلى سبيلها ، ذهبت إلى أخيها عمرو ، وأخبرته بما فعل عنترة ، وما قدمه لها من الخير والمعروف ، وما فعله بزوجها من الأسر والمهانة ، وقالت : وإنى أخشى أن يقتله ، وأرجو أن تسير معى إليه ، وتتفضل على أختك برجائه أن يعفو عنه ويطلقه ، فقال لها : لقد طوق عنترة عنقى بمعروفه ، وإنه فارس ذو مروءة نادرة ، ولا يتأخر عن ندائها أبداً ، ولهذا أكرمك وعفا عنك غير مرة ، دون أن يشفع لك عنده أحد. أما زوجك فهو خبيث لئيم غادر ، ولا أستطيع أن أثقل على مروءة كريم ، من أجل رجل خائن لا أمان له ، ولا ذمة ولا وفاء ، فأعفينى يا ريحانة من هذا ، فموت زوجك خير من حياته ولأن تعيشى أرملة خير من أن تكونى زوجة لرجل لا وفاء له ، ولا مروءة عنده . فلجأت ريحانة إلى البكاء ، وبكت بكاء مرًّا ، حتى ضعف قلب أخيها وأشفق عليها ، وحن إلى إرضائها ، وتلبية رجائها ، فركب فى مائة فارس ، ومعه أخوه عبد الله وأخته ريحانة ، ووصلوا إلى ديار بنى عبس ، والناس مجموعون لمشاهدة صلب الأسد الرهيص .

أبطل عنترة صلب الأسد الرهيص وأرجأه ، واستقبل عمرا ومن معه ، فقال : أظنك يا عمرو قد أتيت لخلاص الأسد الرهيص ، فإنه شغلك الشاغل ، وإن كان قد خرج بخطته وسجيته عن رضاك ، فقال عمرو . مثلك من

يعرف الحقيقة ، وكنت أود أن يكون حضورى لأشاهد قتله وصلبه ، ولكن مثلك من قدر وعفا ، فى الأولى وفى الثانية ، وما منا إلا من هو طليق سيفك وعتيق عفوك ، فإن قتلته فهو حق لك ، وإن عفوت عنه فذلك طبعك وكرمك . فقال عنترة : وقد عفوت عنه إكراماً لك . وأمر أخاه شيبوباً أن يأتيهم به . فلماحضر بين أيديهم قال عنترة : يا وزر ، احفظ هذه المنة الأخرى ، وضع نفسك حيث تشاء ، ولولا صهرك لصلبتك وما تركتك تنشق نسيم الحياة . ثم أطلقه ومنحه خلعة سنية وأحسن إليه ، فقال وزر لله درك يا أبا الفوارس ! فتلك سجايا كريمة لا نجدها عند أحد من البشر. وبعد ثلاثة أيام رحلوا إلى ديارهم ، وفى أثناء الطريق سأل عمرو وزر بن جابر فقال : ماذا أضمرت لعنترة ؟ فقال وزر : أعددت له سيفاً ماحقاً، ورمحاً خارقاً ، فلا نامت عينى حتى أقتله ، وأبيد أولاده وعشيرته وجنده . فغضب عمرو وقال : وهل هذا جزاء الإحسان ؟ ! وهل يعجبك هذا يا ريحانة ؟ ! إنك لئيم غادر لا شرف لك ولا مروءة ، ثم تركهم عمرو وذهب إلى منازله . أما وزر فإنه دأب على المسير حتى دخل الديار ، وكان رجال وزر قد التجئوا لزيد الخيل ليشاوروه فيما يفعلون ، فأقبل وزر عليهم وتلقاه زيد وسلم عليه وقال : لم تسمع النصيحة ، وغرك أتباعك من ألوف مؤلفة ، ولكن عنترة قادر أن يمحق أمثال أتباعك أضعافاً مضاعفة، ولولا عمرو وصهرك لقتلك ورماك جيفة قذرة . فثقل على وزر ذله وخزيه

وقال : لست أول من تنكرت له الأيام ، وسترى ما أفعله بعنترة ، وإن غداً لناظره قريب ، فقال زيد : سيكون الغد عليك لا لك ، وفى النوبة المقبلة لن تنجو من يد عنترة حتى يقتلك ويطوى حياتك ، ثم تركه وانصرف لشأنه ، وأقام وزر يتقلب على فراش خشن من همومه وأحزانه .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر